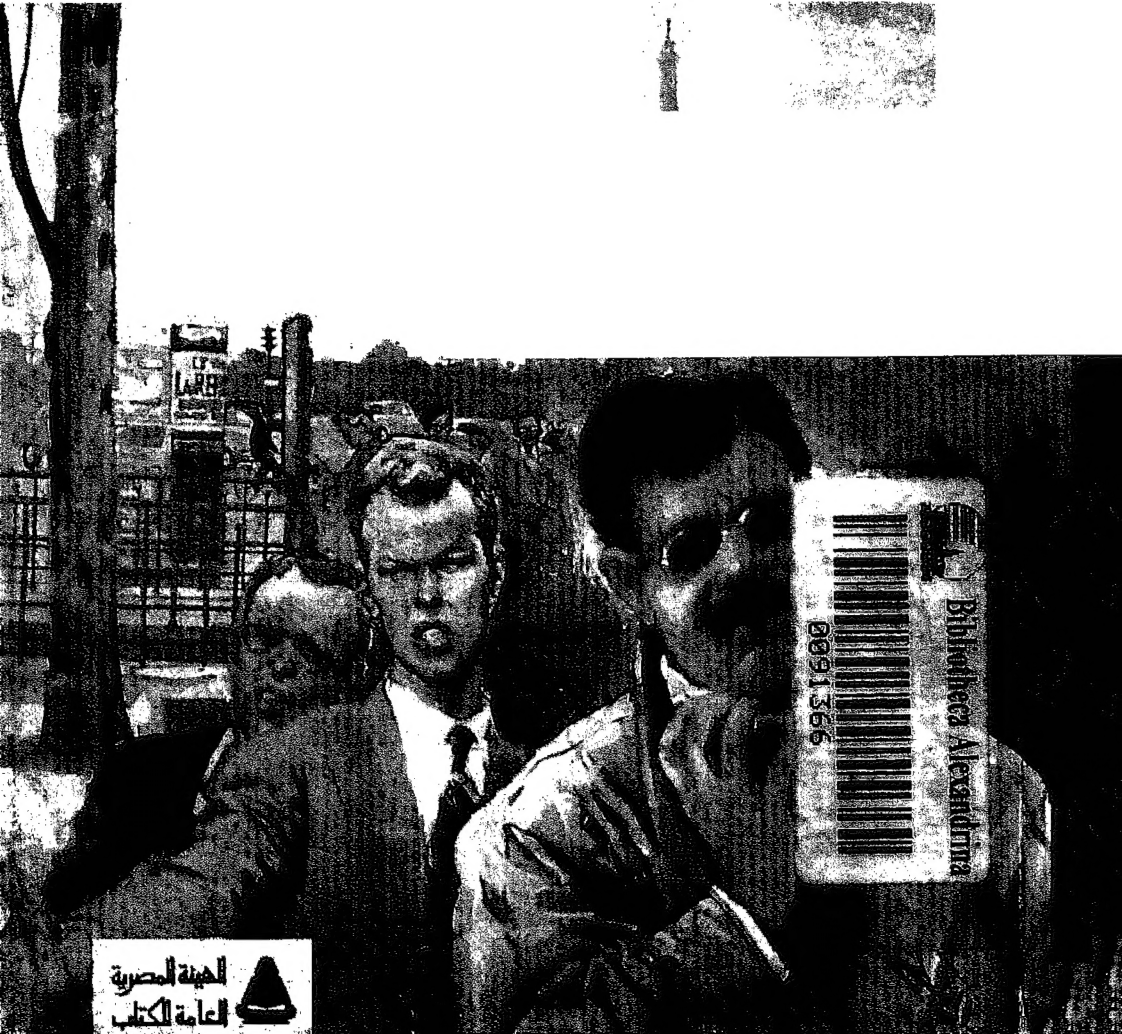


الأعمال
الإبداعية

مهرجان القاهرة للجمع

مكتبة
الأسرة
١٩٩٨

أديب د. طه حسين



الهيئة المصرية
للعامة الكتاب



أديب

أديب

طه حسين



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الإبداعية)

أديب

طه حسين

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

الغلاف

للغنان : جمال قطب

الإشراف الفني:

للغنان محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية
وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى
المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ
للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر
الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى
فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د . سمير سرحان

أخى العزيز

• وددت لو أسميك ، ولكنك تعلم لماذا لا أسميك ، وحسب الذين ينظرون في هذا الكتاب أن يعلموا أنك كنت أول المعزين لي حين أخرجني الجور من الجامعة ، وأول المهنتين لي حين ردني العدل إليها . وكنت بين ذلك أصليق الناس لي ودًا في السر والجمهور ، وأحسنهم عندي بلاء في الشدة واللين .

فتقبل مني هذا العمل الضئيل تحية خالصة صادقة لإخائك

الصادق الخالص . .

طه حسين

زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس . فهو لا يحس شيئاً إلا أذاعه ولا يشعر بشيء إلا أعلنه، وهو إذا نظر في كتاب أو خرج للروض ، أو تحدث إلى الناس، فأثار شيء من هذا في نفسه خاطراً من الخواطر ، أو بعث في قلبه عاطفة من العواطف، أو حث عقله على الروية والتفكير ، لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيّد هذا الرأي ، أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر في دفتر من الدفاتر أو على قطعة من القرطاس .

ذلك لأنه مريض بهذه العلة التي يسمونها الأدب ، فهو لا يحس لنفسه ، وإنما يحس للناس ، وهو لا يشعر لنفسه وإنما يشعر للناس ، وهو لا يفكر لنفسه وإنما يفكر للناس . وهو بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للناس . وهو حين يأتي من الأمر هذا كله يخادع نفسه أشد الخداع ، ويضلّها أقبح التضليل . فيزعم أنه مؤثر لا يريد أن يستمتع وحده بنعمة الإحساس والشعور والتفكير . وإنما يريد أن يشرك الناس في هذا الخير الذي أنتجته طبيعته الدقيقة الخصبّة الغنية ، فإذا كان متواضعاً ، معتدلاً الرأي في نفسه فهو شيء تعيس محزون ، يجب أن يعلن إلى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن . لعلهم يرثون له

أو يرافون به أو يشفقون عليه . وربما لم ير في نفسه إثارة ، ولم يحس أنه شقي وإنما أثر نفسه بالخير ، وأحبها قليلا أو كثيراً فهو يسجل ما يحس وما يشعر وما يفكر ليحفظه من الضياع وليستطيع العودة إليه من حين إلى حين كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية ، وكثيراً ما تعرض له الفرص التي تحمله على أن يستعرض حياته الماضية والذاكرة قصيرة ضعيفة ، فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي يتكون منها تاريخه الفردي الخاص ليعود إليه كلما دعاه إلى ذلك جد الحياة أو هزلها ؟ وما أكثر ما يدعو جد الحياة وهزلها إلى أن يستعرض الإنسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من الأحداث .

يخدع الأديب نفسه هذه الضروب من الخداع ، ويعلمها بهذه الألوان من التعلات . وحقيقة الأمر أنه يكتب لأنه أديب ، لا يستطيع أن يعيش إلا إذا كتب ، يكتب لأنه محتاج إلى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن لأنه محتاج إلى الطعام والشراب والتدخين . وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب . وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس أو يجري به القلم ، كما أنه حين يأكل ويشرب قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ . إنما هي حاجة تضطره إلى الحركة ، فيتحرك وتدفعه إلى العمل فيعمل . فأما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها في يوم من الأيام حين تصبح أمراً مقضياً لا منصرف عنه ولا سبيل إلى التخلص منه .

إذا كان هذا كله صحيحاً ، وأكبر الظن أنه صحيح ، فيجب أن يكون صاحبي الذي أريد أن أتحدث إليك عنه أديباً . فلست أعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت إليهم رجلاً أضنته علة الأدب ، واستأثرت بقلبه ولبه ونفسه كصاحبي هذا . كان لا يحس شيئاً ، ولا يشعر بشيء ، ولا يقرأ شيئاً ولا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً إلا فكر في الصورة الكلامية ، أو بعبارة أدق في الصورة الأدبية التي يظفر فيها ما أحس ، وما شعر وما قرأ ؛ وما رأى وما سمع . وكان يجد مشقة شديدة في إخفاء تفكيره هذا على الناس ، فكثيراً ما كان يقول لأصحابه إذا رأى شيئاً أسخطه أو أَرْضاه : ما أخلق هذا الشيء أن ينشئ صورة أدبية ممتعة للسخط أو للرضاء ! وكان يقضى نهاره في السعي والعمل والحديث حتى إذا انقضى النهار ، وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن الناس ونحلا إلى نفسه ، أسرع إلى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتى يبلغ منه الإعياء وتضبط يده على القرطاس بما لا يعلم ولا يفهم ، وتختلط الحروف أمام عينيه الزائغتين ، يأخذه دوار ، فإذا القلم قد سقط من يده ، وإذا هو مضطر إلى أن يأوى إلى مضجعه ليستريح . ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته ، فقد كان يكتب نائماً كما كان يكتب يقظاً ، وما كانت أحلامه في الليل إلا فصولاً ومقالات ، وخطباً ومحاضرات . ينمق هذه ويدبج تلك ، كما كان يفعل حين كانت تجتمع له قواه العاملة كلها . وكثيراً ما كان يحدث أصدقاءه بأطراف غريبة قيمة من هذه الفصول والمقالات التي كانت تملأها عليه

أحلامه فيجدون فيها لذة ومتاعاً .

وكثيراً ما كان يقرأ عليهم فصولاً من النثر ومقطوعات من الشعر أملتها عليه يقظته ، وسجلتها يده حين كان يخلو إلى نفسه بعد أن يكون قد ملأ عينيه وأذنيه وحسه وشعوره وقلبه وعقله بما يحيط به من الأشياء وبما يحسه من الناس ومن الحياة .

وكان أصدقاؤه إذا سمعوا منه هواجس الأحلام أو خواطر اليقظة ألحوا عليه في أن يذيع ذلك وينشره ، فيبترسم ثم يهزأ ، ثم يمتنع عليهم ويلج في الامتناع ، لأنه كان يؤمن بأن ما يكتبه لم يصل بعد إلى أن يكون خليقاً بأن يقدم إلى المطبعة ، فهو كان يخاف المطبعة ويكبرها ويحيطها بشيء من التقديس غريب ، وكان يتحدث بأن ما يقدم إلى المطبعة من الآثار المكتوبة أشبه شيء بما كان يقدمه الوثنيون القدماء إلى آلهتهم من الضحية والقربان ، وبما يتقدم به الآن المؤمنون المترفون إلى إلههم من الصلاة والدعاء . فمن الحق أن تصطفي الضحية وأن يتخير القربان ، وأن تكون الصلاة قطعة من النفس وأن يكون الدعاء صورة للقلب والعقل جميعاً .

وكان صاحبنا يرى أن ليس فيما كتب ضحية تصطفي ولا قربان يختار . وأنه لم يوفق بعد إلى أن يودع القرطاس قطعة من نفسه ، أو يسيطر عليه صورة قلبه وعقله . فما زالت الآماد بينه وبين المطبعة بعيدة ، وما زالت الأستار والسجف دونه مسدلة .

فليكتب إذن لنفسه لا للمطبعة ، فإذا ضاق بنفسه وبما تملى فليظهر

أصدقاءه على شيء منه وليرض هذه الحاجة القوية التي نحسها جميعاً إلى أن نشرك الناس فيما نجد من حس أو شعور . والحق أن صاحبي لم يكن يقدم على هذا إلا كارهاً مضطراً حين لا يجد بداً من الإقدام ، أو حين يسأله أصدقاؤه عما أحدث بعدهم . وكان حياؤه يمنعه من إظهار عقله وقلبه ، كما يمنعه من عرض جسمه عارياً على الناس . ولكن أصدقاءه لم يكونوا في حاجة إلى أن يروا شخصه عارياً . وكانت حاجتهم شديدة إلى أن يروا نفسه كما هي ، لأنها كانت جميلة خلاصة تروهم حيناً . وتثير في نفوسهم الحب والمودة دائماً .

كان قبيح الشكل نابي الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه ، وكان إلى القصر أقرب منه إلى الطول . وكان على قصره عريضاً ضخماً الأطراف مرتبكها كأنما سوى على عجل ، فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص ، ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد . وكان وجهه جهماً غليظاً ينجيل إلى من رآه أن في خديه ورماً فاحشاً . وكان له على ذلك أنف دقيق مسرف في الدقة ، منبطح غال في الانبطاح ، قد اتصل بجهة دقيقة ضيقة لا يكاد يبين عنها شعره الغزير الجعد الفاحم . لم تكن قد تقدمت به السن ، بل لم يكن جاوز الثلاثين ، ولكن علامات الكبر كانت بادية على وجهه وقده لا ينجذع عنها أحد . كان على قصره مقوس الظهر إذا قام ، منحنيًا إذا جلس ، ولعل إدمانه على الكتابة والقراءة ، وإسرافه في الانحناء على الكتاب أو القرطاس هما اللذان شوها قده هذا التشويه . وقلما كان وجهه يستقيم

أمامه ، إنما كان منحرف العنق دائماً إلى اليمين أو إلى الشمال ، وقلما كانت عيناه الصغيرتان تستقران بين جفونه الضيقة ، إنما كانتا مضطربتين دائماً لا تكادان تستقران على شيء حتى تدعاه مصعدتين في السماء ، أو تنحرفا عنه إلى ما يليه من إحدى نواحيه .

ولم يكن صوته عذبا ولا مقبولا ، وإنما كان غليظاً فجأً ، ولكنه مع ذلك لم يكن يخلو من نبرات حلوة تجرى عليه إذا قرأ شيئاً فيه تأثر وانفعال . وكان له ضحك غليظ خفيف يسمع من بعيد ، بل كان كل ما يصدر عن صوته غليظاً خفيفاً ، يسمع من بعيد ، ولم يكن للنجوى معه سبيل . وكثيراً ما ضايقه ذلك حين كان في باريس . وكثيراً ما حل ذلك الناس عامة ، وأصدقاءه خاصة ، على أن يضيقوا به ويحتنبوه إذا لقوه في قهوة أو ناد أو ملعب من ملاعب التمثيل .

وهو على رغم هذا كله كان أحب الناس إلى ، وأكرمهم على ، وآثرهم عندي ، وأحسنهم مسلماً إلى نفسي ، ومنزلاً من قلبي . كان يزورني فأنصرف إليه عن كل شيء وأقضي معه الساعات ، فإذا تركني خيل إلى أني لم أقض معه إلا اللحظات القصار . وكنت إذا أعيأتني الدرس واحتجت إلى الرياضة أو الراحة آثرت زيارته والتحدث إليه والاستماع له على كل ما كانت تقدم إلى القاهرة أو باريس من أنواع الرياضة والراحة

فقد عرفته في القاهرة قبل أن يذهب إلى باريس ، ثم أدركته في باريس بعد أن سبقني إليها . عرفته مصادفة وكرهته كرهاً شديداً حين لقيته لأول مرة ، كنا في الجامعة المصرية القديمة في الأسبوع الأول لافتتاحها ، وكنت أختلف إلى ما كان يلقي فيها من المحاضرات ، حريصاً عليها مشغولاً بها معتزلاً ألا أضيع حرفاً مما يقول المحاضرون . وكان مجلسي لهذا دائماً قريباً من الأستاذ . فإني لمصغ ذات ليلة إلى الأستاذ وإذا بصوت من ورأى ينطلق بالحديث هادئاً ، ولكنه على هدوئه يغمر أذنيّ جميعاً ، ويكاد يخفي على صوت الأستاذ فأجد في التخلص منه فلا أفصح ، وأضيق بهذا الصوت ويضيق به صاحباي اللذان يكتنفاني .

فنلتفت إلى صاحب الصوت نطلب إليه الصمت فلا يسكت إلا ريثما يستأنف الحديث ، ونراجع مرة أخرى فلا يحفل بنا ، فنشكوه إلى الأستاذ فيضطره الأستاذ إلى الصمت . حتى إذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس رأيناه قد وقف لنا ينتظرنا ، فيعرض لنا في غلظة ، فإذا زعمنا له أن من حقنا أن نسمع الأستاذ ، وأن ليس له أن يصرفنا عنه ، قهقهه قهقهة مخيفة ، وقال في صوت ما نشك أن الأستاذ

قد سمعه : « وماذا تريدون أن تسمعوا ؟ ولكنكم معذورون ، جئتم من الأزهر ، فكل شيء عندكم قيم ، وكل شيء عندكم جديد » .

واجتهدنا بعد ذلك في أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات وأن نختار لأنفسنا مجلساً بعيداً منه أقصى غاية البعد . تركناه ولكنه لم يتركنا ، وكأنما عمائمنا كانت تغريه بنا وتحرضه علينا . فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ يجتبي أو قفطاني وهو يسألني : « أعجبتك المحاضرة ؟ » فإن قلت : « نعم » قال : « وماذا أعجبك منها ، وهل فهمتها على وجهها ؟ » وكان يقول لي : « هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات ولا تهالك عليها هذا الهالك ، فهي أقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع » .

فلما ألح عليّ في ذلك سألته : وإذا كنت ترى هذا الرأي فما اختلافك إلى الجامعة ؟ وما استماعك للمحاضرات ؟ وما تهويشك علينا بصوتك العالي وحديثك الذي لا ينقطع ؟ فضحك وقال : الجامعة شيء جديد أحب أن أراه ، وقد سئمت القهوة ، ولو لم يكن في الجامعة إلا أنت وأصحابك هؤلاء الذين تتفتح عقولهم للعلم الحديث فيتلقون ما يسمعون في كلف ونهم مصدرهما الجهل العميق ، لكان هذا كافياً لأن أختلف إلى الجامعة وأستمع للمحاضرات . ثم سألتني ذات يوم : أين تقيم ؟ أجبتة : أقيم في حي كذا . قال : ومع من تقيم ؟ قلت : مع جماعة من الأهل والأصدقاء كلهم يطلب العلم في الأزهر أو في المدارس المدنية . قال : إن منزلك بعيد وليست بيتك بالتي تحب . فأنا

لا أحب مجالس الطلبة ، وأنا مع ذلك حريص على أن أجلس معك
وأحدث إليك فاطيل الحديث ، بل أنا حريص على أن أقرأ معك
بعض الكتب ، فلا بد إذاً من أن نلتقى ، ومن أن نلتقى في نظام
واطراد ، فليكن ذلك عندي ، ولك على أن أردك إلى أهالك وأصدقائك
قبل أن يتقدم الليل ، دون أن تجد في ذلك مشقة أو تحتل فيه عناء .

وكان يقول هذا بصوته الغليظ العريض في لهجة الحازم الواثق بأن
أمره سيطاع ، وقد هممت أن أرد عليه معتذراً ، وما كان أكثر المعاذير ؛
فلم أكن أستطيع أن أسهر ولا أتعرف إلى أحد دون إذن من أخى ،
وكان على أن أغدو مع الفجر إلى درس الأصول ، ولم يكن بد من أن
أستعد لهذا الدرس وغيره من دروس الأزهر ، وأن أعوض هذا الوقت
الذى أضيعه كل مساء في الجامعة على كره من أخى في القاهرة ،
وأسرق في الريف .

هممت أن أعتذر ، ولكنه لم يمهلى ولم يتح لى أن أقول حرفاً ،
وإنما استوقف عربة ودفعني فيها دفعاً ، وأمر خادى الأسود الصغير
أن يجلس إلى جانب السائق ، وجلس هو إلى جانبي وقال للسائق
بصوته الغليظ العريض : إلى القلعة ، وكنت أسكن في أقصى الجمالية .
فلما أخذت أقدر بعد الأمد بين داره ودارى ، وهممت أن أتكلم ،
وضع يده على كتفى وقال : ألم أقل لى سأردك إلى حيث تقم ؟ !

وقطعت بنا العربية أحياء مختلفة ، ومضت بنا في أجواء متباينة ،
 وكنت أحس اختلاف الأحياء ، وتباين الأجواء فيما يصل إلى من
 أصوات الناس وحركاتهم ومن اضطراب الأشياء من حولنا ، كما كنت
 أحس ذلك في سير العربية نفسها وفي طهجة السائق وهو يدفع الناس أمامه
 ويطلب إليهم أن يتنحوا له عن الطريق أو أن يجنبوا أنفسهم خيله
 وعربته .

كان الحى رشيقةً أنيقاً ، وكان الجو سمحاً طليقاً ، وكانت الحركات
 والأصوات من حولى لا تخلو من شدة وعنف ، ولكن فيها ظرفاً وتأنقاً ،
 حتى إذا بلغنا شارع محمد على ضاقت الطريق ، واشتد أمامنا الزحام ،
 وكثر من حولنا الصياح ، وأخذت أصوات الأطفال ونساء الشعب تختلط
 بأصوات الرجال من العمال وسائقي عربات النقل ، وانتشرت في الجو
 روائح ثقيلة تمتاز منها روائح البصل والثوم وقد أخذت تعمل فيهما النار .
 وارتفع صوت السائق واتصل ، وكثر نذيره وتحذيره ، وكثر حوله لوم
 الناس له وتأنيبهم إياه ، وتردد في الهواء هذا الصوت المعروف الذى يحدته
 السائقون بأسواطهم حين يأتون بها هذه الحركة التى يردعون بها الخيل
 وينبهون بها المارة . ثم تنفسح الطريق وتتسع ويصفو الجو ، وينفخ

الهواء وتهدأ الحركة ، ويتنفس السائق مطمئناً ، وتمشى الخيل رفيقة . ولكن ذاك لا يطول إلا ريثما تنعطف العربية ذات اليمين . وإذا نحن في حارة ضيقة هادئة قد ثقل فيها الهواء وفسد فيها الجو وكثرت في أرضها الأخاديد . فالعربة تقفز بنا قفزاً ، والسائق يهز سوطه في الهواء ، ويحذر وينذر في هدوء ورضى ، ويدعو ذلك بعض النوافذ إلى أن تفتح ، ويثير ذلك بعض الصبيان فيخرجون من بيوتهم أو من أوكارهم يعبثون بالسائق . ومنهم من يتعلق بالعربة ثم ينصرف عنها ، ونجن نضحك من هذا كله ، ونضحك من السائق خاصة وهو ينظر أمامه ويلتفت ورائه ، ويضرب الهواء بسوطه ، ويطلق لسانه بألفاظ ترق حتى تبلغ المداعبة الحلوة ، وتغلظ حتى تصل إلى الشتم القبيح ، وكل ذلك يصل إلى نفسى فيحدث فيها آثاراً مختلفة ، ولكنها على اختلافها تتفق في شيء واحد هو الطرافة ، لأنى لم أكن تعودت ركوب العربات ، ثم يقف السائق فجأة ونزل من العربة ، وإذا صاحبه يقول لى : لم نبلغ البيت بعد . ولكننا انتهينا إلى حيث لا تستطيع العربة أن تمضى ، فهل تعودت التصعيد والرقى في الجبل ، فأنا لا أحب أن أسكن في السهل المنبسط فأكون كغبرى من الناس . وإنما أحب أن أشرف على القاهرة ، وأن أخيل إلى نفسى أنى لست منغمساً فيها ، وأنى أدخلها إذا غلوت إلى عملى مع الصبح وأخرج منها إذا رحت إلى بيتى مع الليل . ولست أخفى عليك أنى أجد لذة قوية حين أدخل المدينة مع النهار هابطاً إليها من هذه الربوة كأنى أغزوها وأسقط عليها سقوط النسر

على فريسته ، وأجد لذة أخرى ليست أقل من تلك اللذة قوة حين أمضى النهار كله في المدينة مضطرباً مع الناس فيما يضطربون فيه من عمل ، خائضاً مع الناس فيما يخوضون فيه من حديث ، مشاركاً للناس فيما يأتون من خير وشر ، نافعاً ضاراً متنفعاً محتملاً للضرر ، حتى إذا كان المساء ضقت بهم وضاقوا بي ، وأويت إلى جامعتكم هذه الجديدة أريح نفسي بما أسمع من كلام فيه الممتع وفيه السخيف . ولكنه على كل حال ليس بلذ غناء ، حتى إذا أخذت بحظي من هذه الراحة الأولى ، رحت إلى بيتي ، فلا تسل عن هذا الشعور العذب الذي يغمر قلبي شيئاً فشيئاً كلما دنوت من هذا المكان ، أحس كأنني أنسل من المدينة ، وأتخفف من أثقالها وألتي آثامها من ورائي وأطهر جسمي ونفسي من أوضارها وأدرانها ، حتى إذا رقيت هذه الرتبة وبلغت قممها هذه — وكنت قد أحسست الجهد من التصعيد في طريق عالية ملتوية — وقفت وقفة من كان في مكروه فخلص منه . وأرسلت زفرة يخيل إلى أنها تحمل بقية ما علق بنفسي من شر المدينة ، ثم تنفست ملء رئتي مرة ومرة ، ثم أقبلت هادئاً مطمئناً قصير الخطى إلى هذا الباب . وهنا وقف ودق الباب دقتين ففتح لنا ثم أغلق من دوننا .

٤

وانعطف بنا إلى اليمين فشينا خطوات ، ثم انتهى بنا إلى دهليز ، فارقنا درجات ، وخادم صبية تسعى بين أيدينا وقد حملت في يدها

اللطيفة سراجاً صغيراً يضطرب منه ضوء ضئيل ، حتى إذا بلغنا أعلى السلم وقف يبحث في جيبه عن بعض الشيء ، ثم أخرج مفتاحاً فأداره في قفل أمامه حتى إذا فتح له الباب صاح صبيحة غريضة أن اخلع نعليك فقد بلغت الغرفة الحرام .

ولم أكد أسمع هذه الجملة حتى انحنيت إلى حذاءي أريد أن أدخله حقاً ، وأى غرابة في ذلك ؟ فقد تعودت خلع الحذاء مرات في كل يوم ، حين كنت أختلف إلى الدروس في الأزهر أو في جامع محمد بك ، أو في جامع العدوى ، أو في جامع الأشرف . هناك حيث كنت أستمع لدروس الأصول والفقه والنحو والمنطق والتوحيد ، وتعودت خلع الحذاء حين كنت أزور بعض الدور ، ولا سيما دور شيوخنا من العلماء ، ولا سيما هذا الشيخ الذي كان الخديو قد نفاه من الأزهر نفياً وحظر عليه التعليم فيه . فتبعناه إلى داره وألحنا عليه في أن يمضي في إلقاء ما كان يلقى علينا من الدروس لا حباً في علمه ولا تهالكاً على شخصه ، ولكن تحدياً لذلك السلطان الذي كنا نراه جائراً متحكماً ، ولا نريد أن نذعن لجوره ولا لتحكمه ، وآية ذلك أننا نشرنا في الصحف خبر إلحاحنا على الأستاذ ، واستجابة الأستاذ لنا ، واختلافنا إلى داره في الضحى من كل يوم نسمع منه الأصول في بعض الأيام ، والمنطق في بعضها الآخر .

هناك في الدرب الأحمر كنا نبليغ الدار مختلفين ، فبعضنا يتخذ أحذية الشيوخ ، وبعضنا يتخذ أحذية الأفندية ، وكلنا كان يخلع

حذاءه ، إذا بلغ المنظرة ، فلم أجده إذًا غرابة في أن يطلب إلى
 صاحبي أن أخلع نعلي حين بلغنا غرفته هذه ، ففعل ما كان يغطي
 أرضها من بساط أو حصير كانت تقام عليه الصلاة ، كما كانت
 تقام على ما يغطي أرض المساجد وأرض منظرة الشيخ من بساط
 أو حصير . ولكنني لم أكد أنحنى على حذائي لأخلعه حتى امتلأ الجو
 بضحك عريض رائع خفيف ، ثم امتدت إلى يد صاحبي الغليظة
 فردتني إلى اعتدال القامة ، وصاحبي يقول : ماذا تفعل ؟ أفتظن أنك
 في الأزهر ؟ أو هذا كل ما علمته من البيان ؟ قلت في شيء من
 الدهش عظيم : وأى غرابة في أن تخلع النعال عند أبواب الغرف ؟
 وأين يكون البيان وأبوابه من خلع النعال ؟ قال : يا سيدي إنهم يدرسون
 لكم في الأزهر التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية . وما أشك في أنك
 تستطيع أن تعيد على كل ما سمعته من هذا ، ولكنك تملأ صدرك
 بما لا تفهمه ولا تحسن الانتفاع به ، فإني لم أرد أن تخلع نعليك ،
 وإنما أردت أن تكبر هذه الغرفة التي بلغت والتي ستدخلها ، لأنها
 غرفة العلم والأدب ، ومستقر الأسفار والكتب ، ومهبط الوحي إن
 كان ما يقع في نفس رجل مثلي يريد أن يكون أديباً شيئاً يمكن أن
 يسمى حياً . فلو أنك تدرس علم البيان دريئاً فهم وانتفاع . حقاً ، لما
 أعياك أن تفهم عني ما كنت أريد . قال ذلك في صوت غليظ يقطعه
 هذا الضحك الذي يصور السذاجة والمكر وحب السخرية في وقت
 واحد ، ثم أخذ بيدي ومضى معي حتى أجلسني على كرسي أمام

مائدة لم أكد أضع عليها يدي حتى لمست كتاباً .
وكانت الخادم في أثناء ذلك ما زالت قائمة وفي يدها اللطيفة سراجها الصغير . فالتفت إليها مفضباً ضاحكاً معاً ، وهو يقول : وما وقوفك أنت هنا كالصنم ؟ ثم خفض صوته قليلاً وقال : ومع ذلك فإن منظرها جميل يصور بعض ما تركه لنا القدماء من آثار الفن .
ولم تنصرف الصبية بسراجها ، وإنما ظلت في مكانها حتى مد يده إلى سلسلة تضطرب في الجو فجذبها إليه في شيء من العنف ، حتى إذا هبط إليه المصباح المعلق في السقف أضاءه ورفع ، وقال للصبية انصرفي الآن وعشينا إن كان عندك طعام .
ثم جلس مني غير بعيد وأشار إلى غلامي الأسود الصغير أن استرح حيث تشاء ، وبدأ حديثه معي في لهجة الحازم الجاد . فقال : والآآن يا سيدي يجب أن ندع اللغوها جئنا هنا للغو ولا لنلهو ، وأن نأخذ في الجدل فللجد وحده أقبلنا ، فحدثني من أنت ، وسأحدثك من أنا ، حتى إذا عرف كل منا صاحبه أخذنا فيما ينبغي أن نأخذ فيه . قلت : فإنك تنظم الأمر كما تحب ، تتحكم في ذلك تحكماً غريباً ؛ لا تسألني عن شيء ، ولا تستشيرني في شيء ، فإني لم أطلب إليك أن أجيء إلى هذا المكان ولا أن آخذ معك في لغو أو جد . قال مقاطعاً : فأنت لا تريد إذاً أن تحدثني عن نفسك حتى أحدثك عن نفسي . فسأحدثك عن نفسي ولكن بعد أن أنبئك أني أعرفك حق المعرفة ، وكنت خليقاً أن تعرفني لولا أنك حديث السن .

ثم قص على من أمرى ما كنت أظن أنه أبعد الناس عن العلم به ، ولكنى لم أدعش لذلك حين ذكر لى اسمه وتحدث إلى عن أسرته ، وأنبأنى بأنه من هذه القرية التى ليس بينها وبين مدينتنا إلا ساعة أو بعض ساعة للذين يمشون على الأقدام ، وأنه قد نشأ فى مدينتنا ، أو أكثر التردد عليها حتى كأنه نشأ فيها ، وأنه قد تعلم القراءة والكتابة فى نفس الكتاب الذى تعلمت فيه ، وقد عرف إخوتى الذين سبقونى إليه ، وقد ظلت المودة متصلة بينه وبين بعضهم حتى تركت أسرتنا هذه المدينة إلى أقصى الصعيد . وحتى هبطنا نحن إلى القاهرة نطلب العلم فى مدارسها المختلفة .

منذ ذلك الوقت تقطعت الأسباب أو رثت بينه وبين من كان يود من إخوتى ، يسألنى عنهم واحداً واحداً ، وأنا أجيبه ، ثم أسأله عن نفسه كيف تعلم وماذا يعمل الآن ؟ فينبغى بأنه أتم درسه الثانوى منذ أعوام ، واتصل بوزارة الأشغال يعمل فيها كاتباً فى بعض الدواوين يختلف إليها وجه النهار ، ويعكف آخر النهار وجزءاً غير قليل من الليل على القراءة والدرس حتى كلف بهما أشد الكلف ، وأصبح عمله فى الوزارة وسيلة آلية ، على حين هو عند أترابه من الشبان غاية لا يلتمسون غيرها غرضاً من أغراض الحياة .

ولم يكد يتقدم الحديث بيننا فى هذه الشؤون حتى أقبلت الخادم تزيل ما على المائدة من كتب تهيئها للأطباق وآنية العشاء . وقد زالت الكلفة بيننا ، وأخذت أسمع منه وأتحدث إليه كما يكون الأمر بين

إلفين قد بعد العهد بما بينهما من المودة والحب والمخالطة ، فليس بينهما
تصنع ولا تكلف ولا عناية بما يقولان .
وما هنى إلا لحظات حتى كنا نلهو ونضحك من ذكريات لم
نلبث أن وجدناها مشتركة بيننا ، وكلها متصل بخياتنا فى الريف .

٥

قال لى فى بعض ما كان يقول ، وقد هدأ نشاطه وانخفض صوته ،
ورقت لهجته ، وجعل يتحدث إلى كأنما يهمس همساً وكأنما يصدر
صوته عن نفس متأثرة أشد التأثر ، وقلب يملؤه الود والحنان ، ولو أنى
استطعت أن أرى وجهه فى تلك الساعة لما شككت فى أنى كنت
خليقاً أن أتبين فيه مظاهر التأثر وآيات الحنان .

قال لى فى هذا الصوت العذب : « هبنى فى القرية ، وهبك فى
المدينة ، وهبنى أريد أن أزورك لأقضى معك شطراً من النهار ، فأين
ألقاك ؟ »

قلت : « إنما يزور الناس فى دورهم » . قال : فلمنى لا أريد أن
أزورك لأنى لا أريد كلفة ولا حرجاً ، ولا تقيداً بهذه الأوضاع التى
يتقيد بها الناس ، ولا سيما الشباب والصبية ، حين يتزاورون فى الدور ،
حيث الآباء والإخوة الكبار . إنما أريد أن ألقاك حرّاً ، طلقاً ،
لا تحسب حساباً لشيء ولا لأحد ، وأحب أن تلقى عن رأسك هذه

العمة الثقيلة التي تضطرك إلى وقار لا أحبه لك ، ولا أرضاه منك ، وأن تخرج من هذه الثياب التي لا يلبسها إلا الشبان الذين تقدمت بهم السن إلى ضحوة الشباب ، فأنت في آخر ليل الطفولة ، وفي أول فجر الشباب . قد أخذت نفسك تفتتح للحياة وتبسم لها ، وتخرج من غفلة الطفولة وتحاول أن تقدر الأشياء ، وأن تزنها وأن تحكم عليها في هذا الغرور الجسيل اللذيذ ، الذي يخيّل إلى الغلمان أنهم رجال ، ويلقى في روعهم أن آراهم موفقة دائماً ، وأن أحكامهم صائبة دائماً ، وأن الكبار من الرجال يخطئون ، حين يسيئون الظن بهم ، ويرونهم صغاراً ، ولا يشركونهم معهم في كبار الأمور .

ألق إذاً هذه العمة ، وأخرج إذاً من هذه الحبة ، ومن هذا القفطان ، وعد إلى ثوبك النضفاض ، الذي كنت تلبسه قبل أن تهبط إلى القاهرة ، والذي كان يمتاز من ثياب أترابك من أهل الريف بضيق كميته وتكسرهما بعض الشيء عند آخرهما ، وبهذا التكسر المنظم على الصدر ، وفي أعلى الظهر . وهذا الحزام العريض الذي كان يتصل به عند الخصر ، ولكنه لا يعيط بالجسم كله ، وإنما هو قطعتان قد خيطتا على جانبي الثوب من يمين وشمال ، ثم وصلت إحداهما بالأخرى أزرار من الصدف . عد إلى هذا الثوب وضع على رأسك ذلك الغطاء الرقيق الأبيض الذي يسمونه لطاقيّة وما هو بالطاقيّة وإنما هو شيء يصطنعه المترفون من أهل المدن في الأقاليم يقلدون به بعض قلانس الفرنجة ويسمونه الطافية الإفرنجية .

عد إلى هذا الزى ، وسأخرج أنا من هذا الزى الأوربي وأعود إلى الزى الذى كنت أصطنعه فى الريف حين لم أكن أذهب إلى المدرسة فأدخل فى ثوب من الصوف ، مفتوح الصدر ، وأتخذ على رأسى الطربوش ، كما يفعل المترفون من أبناء العمدة ، فأنت تعرف أنى ابن عمدة وسأزورك ماشياً لا أركب لهذه الزيارة فرساً ولا حماراً ، لأنى أريد أن أكون حرّاً طليقاً ، وأن أقضى معك وقتاً لا يشغلنى فيه التفكير فى فرس أو حمار .

عد إلى زيك القديم وسأعود إلى زى القديم وانتظر أن أزورك ، وحدثنى أين ألقاك ، على ألا يكون اللقاء فى بيتك . فأنا أعرفه حق المعرفة ، ولا أريد أن أجلس فى المنظرة ، ولا أريد أن أجلس فى ظل هذه العنابت التى تقوم إلى جانبها ، ولا أريد أن ألعب فى هذا الفناء الذى ينبسط أمامها والذى ترونه واسعاً وأراه ضيقاً ، والذى يجب أبوك أن يجلس فيه إذا كان العصر ، والذى يؤثر سيدنا أن يقرأ فيه القرآن كل يوم قبل أن تطلع الشمس .

إنما أريد لقاء حرّاً ، فى مكان حر ، ليس فيه رقيب يسمع لنا إذا تحدثنا ، أو يسألنا أين تذهبان إذا أردنا أن نمضى أماناً وألا نلزم مكاناً بعينه .

قلت وقد أثر فى نفسى حديثه وصوته ولحجته وما أثار من الذكرى ، فرجعت إلى ذلك الطور الذى كنت فيه حين فارقت المدينة لأهبط إلى القاهرة ، ورجعت إلى ذلك الزى الذى وصفه والذى كنت أعود إليه كلما عدت إلى الأقاليم .

قلت : فستلقاني إذاً في طريقك جالساً أمام دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، على أحد هذين الصندوقين اللذين يكتنفان الدكان عن يمين وشمال ، واللذين يجلس عليهما الناس لينفقوا بعض الوقت في الحديث وفي النظر إلى من يأتي من الغرب ، أو من يذهب إليه ، وإلى النساء وهن يذهبن إلى الإبراهيمية ليملأن جرارهن ، ويعدن منها وقد أثقلت رءوسهن هذه الجرار وهن يتحدثن همساً بينهن ، أثناء النهار ، كما يتغنين جماعة حين يغدون مع الصبح ، أو في الاستماع إلى حديث هاتين المرأتين اللتين تكتنفان الدكان عن يمين وشمال ، إلا أن إحداهما تلاصقه والأخرى قد أقامت دارها في الناحية الأخرى من الشارع . أتعرفهما ؟ قال : كما تعرفهما ، فأما الأولى فزنوبة ، وأما الأخرى فأُم محمود . كلتاهما تجلس على باب دارها وتحدث إلى صاحبتيها ألوان الحديث ، في صوت مرتفع ، فيه عبث ودعابة ولين ، وشباب المدينة يكلفون بالجلوس عند الدكان ليسمعوا لحديثيهما وليدخلوا فيه من حين إلى حين ، حين يكون الحديث دعابة ، وما أكثر ما يكون الحديث دعابة بينهما . فهما لا تحسنان في الحياة إلا الدعابة وكسب المال . قلت : فستلقاني جالساً على أحد هذين الصندوقين ، فقد تعودت أن أقضي وجه النهار مع صاحب الدكان وأخيه . أتحدث مع أولهما في أخبار الشيخ ماضى وآثاره وكراماته ومقاماته ، وأسمع من ثانيهما ما يقرأ على من كتب القصص والوعظ ، لا ينقطع حديثنا ، ولا تنقطع قراءتنا إلا حين تأتي امرأة أو فتاة لتشتري بعض الملح ، أو الفلفل

أو الخيط ، أو ما يباع عندهما من سقط المتاع .
قال : فقد انحدرت إليك من المغرب ، ولم أكد أهبط من الجسر
حتى مررت بهذه الدور التي تعرفها فحيت حسن كوزو وهو جالس
أمام داره ومن حوله امرأته وبناته وأبناؤه ، وهم يلغظون لغطهم المتصل ،
ثم مررت بدار عم حسنين ، ولم ألقه من حسن الحظ ، فلو قد لقيته
لاستوقفني ولسألني : فيم أقبلت ؟ وكيف تركت أبي ؟ وما بال أبي
لا ينحدر إلى المدينة ؟ وما أشك في أنه كان سيستبقيني ، ولعله كان
يلجّ علىّ في أن أتغدى عنده فهو حريص على أن تتصل المودة بينه
وبيننا ، ولكني جرت الدار سالماً لم ألق أحداً ولم أتعرض لهذا الإكرام
الذي كنت أخشاه ؛ وقد رأيتك من بعيد وتبينت أنك لم تكن تتحدث إلى
صاحب الدكان ولا تسمع لقراءة أخيه ، إنما كنت معتزلاً على صندوقك ،
قد انثنى أعلاك على أسفلاك ، وقد وضعت رأسك بين يديك ، والناس
من حولك قائمون ، منهم من يشترى ، ومنهم من ينظر ، ومنهم من
يمنح طرفه زنوبة ، ومنهم من يمنح طرفه أم محمود ، وهذا الشيطان
المارد ابن العمدة ، يذهب في الشارع ويحجى ، متحدثاً متغنياً ، يلقى
نظرة خلصة إلى هذه الحارة عن عین الدكان ، حيث يقيم سيدنا وامرأته
الشابة ، وحاماته العجوز ، وحيث تقيم عالية أم غريب .
وهأنذا أنتهى إليك فأضع يدي على كتفك ، وها أنت ذا تدع
لمكاني منك ، ولكنك لا تكاد تسمعي أحبيك حتى تطمئن إلى
وتبتسم لي ، وتدعوني إلى الجلوس ، ولكني آبي ذلك عليك ، وأنهمك

وآخذ بذراعك ثم نندفع معاً في هذا الشارع الذى يكاد يواجه بيت
زنوبة ونمضى معاً إلى القناة .

انظر ها نحن هذان قد بلغنا القناة ، فأما عن يميننا فحديقة
جرجس أفندى ، ثم المنحدر إلى بيتكم ، وأما عن شمالنا فخيام العرب ،
الذين اختاروا هذا المكان مضرراً لخيامهم ، والذين يخفرون هذا
الطرف من أطراف المدينة . إلى أى الوجهين تريد أن نمضى ؟ أتريد
أن نمضى إلى يمين لنبلغ المدينة ، أم تريد أن نمضى إلى شمال نحو
الغرب لنبلغ الإبراهيمية ، فنأوى إلى ظل شجرات التوت ، أو نمضى
أمامنا في هذه الحقول التى لا تكاد تنتهى . أم تريد أن نعبّر القناة فليس
عبورها شاقاً ولا عسيراً ، فهى جافة في هذه الأيام ؛ ألسنت تحس
من حولك هؤلاء الصبية ، وهم يلعبون فيها ، ويلتمسون ما تخلف في
طينها من صغار السمك ؟ إلى أين تريد أن نمضى ؟ إننا إن عبرنا
القناة ، لم نمض غير قليل في هذا الفضاء الواسع الطلق حتى نبلغ
الخط الحديدى ، فإذا عدوانه فقد انتهينا إلى المدينة من طريق قريبة .
إلى أين تريد أن نمضى ؟

وما أرانى محتاجاً إلى أن أسمع منك جواباً . فأنت تريد من غير
شك وأنا أيضاً أريد أن نأخذ طريقنا عن يمين فلانها يسيرة مألوفاً ،
وهى طريق الناس حين يأتون من المدينة أو يذهبون إليها ، وهى خليقة
أن تقدم لنا من ضروب اللهو وألوان العبث والمتاع ما نبتغى . فليس
بيننا وبين حديقة المعلم إلا خطوات . ها نحن هذان قد بلغناها .

وأثرنا أن نميل إليها فنحنى من ريحانها ، ونقتطف من أثمارها ، ونستظل بأشجارها ساعة لتحدث فيما تعودنا أن نتحدث فيه ، إنها لجميلة هذه الحديقة لم تتخذ زينة ، ولم يعمل فيها المنسقون ، وإنما هى حرة مطلقة ! ينبت فيها الزهر والشجر كما يريدان فى غير قيد ولا نظام ، وإنها لجميلة حين تتقدم فى رشاقة وخفة بما تحمل من زهر وثمر ، وورق نصر وأغصان لدنة إلى القناة ، كأنها تريد أن تهدى هذا كله إلى هذا الماء حين يجرى فيها قوياً هادئاً موفور النشاط مع ذلك كأنه إله شاب من آلهة الأساطير .

أنا أعلم أنك تحب هذه الحديقة وتجد لذة فى أن تخلو فيها إلى نفسك فتقص عليها ما تتصور من الأحداث والخطوب ، أو تعيد عليها ما تسمع من القصص والأحاديث . وما ملت بك إليها إلا لأنى أعلم أنك تحبها وتؤثر أن تقضى فيها ساعات بعيداً عن الناس ، قريباً منهم فى وقت واحد . أنا أعلم أنك لا تحب العزلة الخالصة ، ولا تحب الخلطة الخالصة ، ولكنى أحس الآن كأن مكانك ينبو بك ، وكأنك لا تطمئن إلى الحديقة أو كأن الحديقة لا تريد أن تتلقاك بما تعودت أن تتلقاك به من البشر والأنس والحنان .

أحس أن جسمك كله يضطرب كأنه يكره السكون ، ويدفع إلى الحركة دفعاً . ماذا تنكر من هذه الحديقة ؟ أو ماذا تنكر منك هذه الحديقة ؟ لم لا تريد أن تخلو إلى كما تخلو إلى نفسك ، وأن تقص على كما تقص على نفسك ما تعيده عليك الذاكرة أو ما يخلقه لك الخيال .

ها أنت ذا أشبه شيء بالجواد الجموح الذى يعرض شكيمة ،
ويضرب الأرض بسنابكه ، ويكاد يخرج من جلده مرحاً وشوقاً إلى العدو .
إلى أين تريد أن نمضى ؟

وهو يقول هذا كله فى لهجة جد واقنع ويقين حتى ينسنى مكانى
منه ، ومكانه منى ، ومكاننا من القاهرة ، وحتى يقنعى بأننا صبيان ، أو
شبابان نقصد إلى التزهة فى ريفنا ذلك البعيد ، وقد سمعت منه ، وأمنت له ،
وهمت أن أجيبه ، ولكنه منطلق لا يريد أن يقف ، متدفق لا يريد أن
يهدأ ، يسأل ولا ينتظر الجواب ، وإنما يجيب وهو يمضى فى حديثه لا يلوى
على شيء ، وأنا أسمع وأتبعه ، وهو يسرع فى الحديث ، وكأنه يسرع فى
الحركة ، حتى يعينى سماعه ، ويعجزنى اتباعه . ولكنه ماض فى حديثه ،
ماض فى حلمه ، لا يقف عند شيء ولا يلوى على شيء . والغريب أنه
كان يتحدث فيثير فى نفسى مثل ما يثير فى نفسه من الذكرى . ثم
يتحدث عنى وعمما أحب فكأنما أنا أتحدث عن نفسى .

قال : فإنك لا تريد البقاء فى هذه الحديقة لأن نفسك لا تنهأ للخلوة
ولا للحديث الهادئ المطمئن ، وإنما أنت اليوم مهياً للحركة والنشاط
الجسمى ، وما أرى أنك تستريح حتى تكلف نفسك بالمشى جهداً ثقيلاً ،
ولولا أنك شديد الحياء ، وأنت تخشى المصاعب والعقبات ، لآثرت العدو
ولكلفت بالجرى السريع . فهلم إلى الطريق العامة فليس لك فى هذه
الحديقة أرب منذ اليوم .

هلم وليكن مشينا سريعاً يشبه العدو ، ولكنك لم تطاوعنى إلا قليلاً .

وهأنذا أحس أن قدميك تنقلان وأن نشاطك ينال منه الفتور ، وأنتك تؤثر مشياً رزيناً هو إلى التلكؤ أدنى منه إلى الجلد والسرعة . لقد فهمت أن مكانك من هذه البيوت الأربعة التي تنتظم على شاطئ القناة في نسق بديع وقد امتدت أمامها حدائقها الواسعة ذات الشجر الملتهف والأغصان المتدلّية على الأسوار . وأنت تريد أن تسعى سعياً هيناً إلى جانب هذه الأسوار وأن تداعب بيدك هذه الأوراق الخضر النضر لأنك تجد في مسها راحة ولذة ونعيماً لنفسك وهدوءاً لقلبك الذي قلما يظفر بالهدوء .

تريد أن تقف وأن تعبث بهذا اللباب الذي يتلوى على سور المأمور ، تريد أن تداعبه وتلاعبه وتقوم اعوجاجه وتصلح التواءه ، ولكنك تعلم أنه لا يستقيم ، ولا يحب الاعتدال . ثم أنت تريد أن تطيل الوقوف عند بيت الملاحظ . وما أظن إلا أن نفسك تنازعك إلى أن تطرق الباب ، وتدعو عثمان أو محموداً . فن يدرى ! لعل أحدهما أن يستجيب لك وأن يدعوك إلى الدخول لتحدث إليه ، أو إليه وإلى أخيه ساعة من نهار . إنك لشديد المكر ، وإن نفسك لشديدة الالتواء . لم تكذب على نفسك ؟ وتكذب على ؟ إنك لا تريد عثمان ، ولا تحب الحديث إلى محمود ، وإنما تريد أن تدخل الدار وتقطع إليها هذه الحديقة العريضة متلكئاً بعض الشيء ، متكلفاً بعض الأناة والمهل . حتى إذا بلغت الدار وأجلست في هذه الحجرة المتواضعة التي لا تمس القدم فيها أرضاً عارية كالتى تمسها حيث تلعب في بيتك أو حيث تجلس عند الدكان ، وإنما تمس أرضاً

قد رصفت بالحجارة وفرشت عليها البسط ، وهناك في هذه الحجرة لا تلقى إلى صاحبك إلا إحدى أذنيك ، أو بعض ما تستطيع أن تلقيه منها . فأما أذنك الأخرى فرسلة إلى آخر الدار ، ومعها نفسك كلها . قل الحق . إنك لا تريد عثمان ولا تبتغي الحديث إلى محمود ، وإنما تريد أن تسمع أحد هذين الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النظرة في الغصن المورق اللدن . بل أنت أسعد الناس إن أتيح لك الاستماع إلى الصوتين جميعاً .

أيهما أثر عندك وأحب إليك ؟ صوت هذه الفتاة الناهد التي تسمى عزيزة والتي توشك أن تلعب معك ومع أخويها لولا ما تأخذها به أمها التركية وأبوها الألباني من تكلف الوقار والاحتشام . فهي تجلس إليكم وتسمع منكم وقد تشارككم في الحديث ، وقد يضحكها ما تخوضون فيه ، فإذا ضحكها يضطرب في الحجرة مشرقاً صافياً مضيئاً كأنه البلور . أم صوت أختها أمينة هذه التي نيفت على العشرين ، وجاوزت طور اللعب ، وتزوجت ثم طلقها زوجها فعادت إلى أسرتها كثيراً محزونة هادئة الصوت ، ولكن صوتها الهادئ يثير في قلبك وجلاً ، وفي نفسك اضطراباً ، وفي أعماق ضميرك قلقاً لا تبين أصله ، ولا سره ، ولكنك تخافه وتحبه معاً . أي الصوتين أثر عندك وأحب إليك ؟ إنى لأخشى أن تكون فاجر النفس ماجن القلب . مسرفاً فيما يتيح لضميرك من حرية . إنك لتحب الصوتين جميعاً ، وتألف الأختين جميعاً ، وتحب أن تنعم ما وسعك النعيم بما تثيران في نفسك من هذه العواطف الحادة المبهمة الغامضة ، وإنك

لتسمع لهما إذا تحدثتا أو ضحكنا أو جاءنا بشيء من الحركة فتعنى عنهما هذا كله ، وتسجله فى نفسك تسجيلا حتى إذا عدت إلى دارك ، وآويت إلى مكانك الذى تعودت أن تعتزل فيه ، أخذت تعيد فى نفسك ما سمعت من كلام ، ومن ضحكك ، ومن غناء ، وأخذت تتخيل ما أحسست به من حركة ، وأخذت تتعمق هذا كله ، وتستخرج منه صورا ومعانى وعواطف وخواطر ، لا تحصي ولا تستقصى ولكنها تنسيك نفسك وأهلك ودارك وتنهى بك إلى عالم غريب هو أحب إليك ألف مرة من هذا العالم الذى تعيش فيه . قل الحق ! ألسن أصور ما تجد ، وأقص ما تحس ، وأحدثك بما تحب أن أتحدث إليك فيه ، ولكنك قد أطلت الجلوس بين عثمان ومحمود ، والاستماع لعزيزة وأمينة ، وهذا صوت المؤذن ينتهى إلينا داعياً إلى صلاة الظهر ، وسيقبل الملاحظ بعد وقت قصير ، ولئن بقينا لندعين إلى الغداء ، وأنا أعرف أن حيائك وأدبك يأبيان عليك أن تستجيب لهذا الدعاء ، وأن نفسك تنازعك إلى البقاء . وما أظن إلا أنك لو أرسلت نفسك على سجيئتها لأقمت . ولا حتمت ساعة الغداء هذه الثقيلة لتستمتع بعدها بساعات طوال ، تنعم فيها بهذين الصوتين وما فيهما من فتنة وروعة وحنان . ولكن لا سبيل إلى الإقامة . وماذا نصنع بحيائنا ؟ وماذا نصنع بأدبنا ، وكيف تلقى أمك ؟ وكيف تجيبها ؟ وكيف تثبت للومها العنيف حين تصور لك أن الفتيان الذين يحسن أدبهم لا يبقون فى الزيارة إلى أن يدركهم الغداء ، ولا يستجيبون إلى الطعام ، إذا لم تسبق دعوتهم إليه .

هلم أيها الصديق البائس الحزين ودع أمينة وعزيزة ، فقد يتاح لك أن تراهما إذا كان الغد أو إذا كان المساء . فأما الآن فصدقنى ليس لنا فى هذه الدار مقام .

أما الآن وقد تجاوزنا عتبة الدار ، وأغلق من دوننا الباب ، ورجع عثمان ومحمود أدراجهما فى الحديقة واستقبلنا القناة ، فوقفنا على شاطئها لحظة مترددين ، أنعود إلى حيث كنا بعد أن تقدم النهار ؟ أم نمضى عن يمين إلى المدينة وإن عرضنا ذلك لشيء غير قليل من اللوم

ثم آثرنا اللهو والعبث فأخذنا طريقنا عن يمين نحو الخط الحديدى نسعى هادئين . أما الآن فإنى أحمد جدك وحزبك وشجاعتك وإصرارك على أن تنصرف حين هممنا بالانصراف ، وإبائك على عثمان ومحمود وإبائك بنوع خاص على عزيزة وأمينة ، وقد كانوا جميعاً يلحون علينا فى أن نبقى ويرغبونا فى البقاء ، يعرض عثمان ومحمود علينا أن يظهرانا على ما عندهما من أعاجيب القاهرة ، هذه اللعب التى لا تنتشر فى الزيف ، ولا يألّفها أهل الأقاليم ، وتعرض علينا عزيزة العزف على البيانو . وتعرض علينا أمينة القراءة فى بعض القصص ، وأنت مصمم على الانصراف برغم نفسك التى كانت تنازعك إلى البقاء نزاعاً شديداً .

على أنى لا أفهم كلفك بالاستماع لعزيزة وأمينة ، وافتتانك بأحاديثهما هذه التى يلتوى فيها لسانهما بلهجة أهل القاهرة فى تألق وتكلف وتعمد للفتنة ، كأنما تريد كل واحدة منهما أن تدل على نفسها ، وتنبهنا إلى أنها ليست منا ، وإلى أننا لسنا منها فى شيء ، إنما هى من هذا العنصر الممتاز

الذى لا ينطق الجيم كما نطقها ، ولا يحول القاف كما نحولها إلى جيم غليظة وإنما يحيلها إلى همزة رقيقة خفيفة حسنة الموقع فى الأسجاع ، ولا يمتلئ فيه بالكلام يهدر به كما تهدر الإبل ، وإنما يضيق به ويتلطف فى إرساله ويجريه هادئاً حلوّاً رقيقاً ، فيخرجه أحسن مخرج ، ولا يلقيه كما نلقيه نحن إلقاء الجنادل والصخور . لا يعجبني شيء من هذا لأنى أراه تكلفاً وتصنعاً . ومن يدرى لعنا إن رأيناها فى القاهرة ، واستمعنا لها فى بيتهما الطبيعية أن نجدهما أقل تكلفاً وأدنى إلى الفطرة ، ولعلهما يومئذ أن تجدا إلى نفسى الغليظة سبيلاً . أما الآن فإن قلبى مغلق دونهما إغلاقاً ، وإنى لأوثر ألف مرة عليهم فتياتنا الريفيات ، وما يمتزى به من حياءٍ حلوٍ وخفر ناعم ، وحديث عذب على غلظته ، وصوت محبب إلى النفوس على ما يضطرب فيه من بعض الجفاء ، ستغضب وستثور وستنكر ذوقى أشد الإنكار ، ولكنى لا أتردد مع ذلك فى أن أعلن إليك أنى أوثر كلمة بنت عالية وأخت غريب ، على عزيزتك هذه المتكلفة المتصنعة . وأوثر خديجة بنت محبوبة وأخت على ، على أميئتكَ هذه التى ترى أن ليس على الأرض امرأة تعلمها أو تدانى حظها من الرقة والجمال .

إنى من أنصار الحسن الطبيعى الذى لا يحتلب ، ولا يشتري ، وإنما تخلعه الطبيعة وتفيضه على الوجوه والنفوس ، هذا الحسن الذى تحدث عنه المتنبي . أتذكر بيته ؟ إنه مشهور :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

وكان هذا البيت من شعر المتنبي قد أيقظ صاحبي من نوم عميق ،
ورده من هيام بعيد ، ونبهني أنا إلى مكاني منه ، وإلى مكانه منى . فما
كان لشاوين جاهلين من شباب الريف أن يديرا بينهما مثل هذا الحديث
أو يذكرنا مثل هذا الشعر . وأين حديث الريف الساذج اليسير الذى
لا فلسفة فيه ولا تعمق من هذا الحديث الطويل الذى اندفع فيه صاحبي
كأنه السيل لا يرده شيء ، والذى أخذ يتكلف فيه ما تكلف ، ويصطنع
فيه ما اصطنع على غير شعور من الفلسفة والتعمق والدقة فى التفكير والتعبير .
فلما سمع صوته يشد هذا البيت ثاب إلى نفسه ، وثبت أنا إلى نفسى وإليه ،
فلبت دقائق صامتاً لا يقول شيئاً كأنما كان يستجمع قواه المفرقة ، ويدعو
إليه نفسه الشاردة ، وينتظر أن يعود إليه عقله وقلبه من مدينتنا تلك فى
الريف ، فلما استجمع من ذلك كله ما كان يريد قال فى صوت هادئ
عميق : أين أنا ؟ وماذا كنت أقول ؟ ثم أرسل ضحكته العريضة المخيفة ،
ونفض قائماً وهو يقول : أما إننا قد طعمنا حتى اكتفينا ! هذه الصبية
البلهاء قد أقبلت فوضعت طعامنا على المائدة ولم يخطر لها أن تدعونا إليه ،
كأنما ظنت الحمقاء أنى رأيتها أو سمعتها أو أحسست مقدمها وكأنما لم تشعر
أنا كنا غائبين نسعى فى مدينة من مدن الريف ، وهذا خادملك الأحمق قد

جلس على كرسيه عند باب الغرفة وهو يغط معناه فى نومه العميق كأن
أحاديثنا لم تعجبه ولا تروقه ولا تصل إلى نفسه الغليظة المحجبة بحجب
الجهل والجفوة والغفلة . ثم ثاب إلى ووضع يده على كتفى وهو يقول : وأنت
ماذا أحسست من هذا الحديث ؟ ولم يمهلىنى ، ولم ينتظر منى جواباً ،
ولمّا اندفع يقول : ما أرى إلا أنك ظننت بى الجنون وأخذت تسأل نفسك
أين أنت ، وتمت الساعة التى لقيتك فيها وتلوم نفسك لأنك طاورتنى
واستجبت لدعائى ، وتشفق ألا تتاح لك العودة إلى أخيك . ومن يدرى !
لعل المتنبى قد أنقذك حين جرى هذا البيت من شعره على لسانى فردنى
إلى نفسى وإليك ، ولعلك إن بقيت تسمع لى وأنا أمضى فى هذا الهذيان
كنت مضطراً إلى أن تنتهى آخر الأمر إلى الهلع والجزع ثم إلى الاستغاثة
والصياح ، ومع ذلك فثب إلى نفسك وامنحنى بعض عنايتك وحدثنى :
أليس هذا فناً من الشعر ونحواً من أنحائه ؟ لا تظن أن القدماء من الشعراء
كانوا يصنعون شيئاً غير هذا حين كانوا يقفون ويستوقفون على الأطلال
والديار ، وحين كانوا يذكرون ويذكرون بمن كان يقيم فيها ثم ارتحل عنها
من الأحبة والأخلاء ، وحين كانوا يتبعون الظاعنين ويصفون ما سلكوا من
طريق ، وما عرض لهم فى سفرهم من خطوب ، وما أنضوا من إبل وما وردوا
من ماء آجن وما انتهوا إليه من مرعى . إنما كانوا يصنعون مثل ما صنعت
وبهيمون مثل ماهمت ، وينسون أنفسهم كما نسيت نفسى ، ويرسلون قلوبهم
كما أرسلت قلبى على جناحى هذا الطائر الخفيف الرشيق اللئى يحسن
الإسراع ، ويحسن الإبطاء ، ويحسن المضى ، ويحسن الوقوف ، وهو الذكرى .

وحدثني أفهمت شيئاً من حنين القدماء على وجهه حين قرأت ما قرأت من شعر امرئ القيس ، وغير امرئ القيس من هؤلاء الذين كانوا يحسنون الذكرى ويجيدون تصوير الوفاء . إنما هي عندك ألفاظ تقع في أذنيك كما يقع غيرها من ألفاظ ، تفهم الظاهر من معانيها ، فإن أعجزك الفهم سألت كتاباً من كتب اللغة فلا يثبتك إلا بظاهر من معانيها . لا تكاد هذه الألفاظ تتجاوز أذنيك إلى عقلك فضلاً عن أن تتجاوزها إلى قلبك وإلى ضميرك فتثير فيهما عاطفة أو هوى أو ميلا ، وتدعوك إلى أن تقدر الحياة كما ينبغي أن تقدر الحياة . صدقني أنكم لا تدرسون الشعر ولا تدرسون الأدب ، وإنما تدرسون ألفاظاً ومعاني وصوراً ليست من الشعر ولا من الأدب في شيء .

قلت وقد أعجبني حديثه وأرضيتني آراؤه ، ولكنني على ذلك ضقت بهذا السيل الذي لا يقف ، وأشفقت من أن يمضي فيه كما مضى في الذكرى آنفاً ، ومن أن ننفق بقية الليل كما أنفقنا أوله ، وأشفقت بنوع خاص من أن يلهينا هذا الحديث المتصل والسيل المتدفق عما نحن في حاجة إليه من التفكير في العودة إلى بيتي ، فما أشك في أن غيبتني قد طالت ، وفي أنها ستطول ، وفي أنها ستلحظ ، وفي أنني سأسأل عنها إذا كان الغد .

قلت ضاحكاً : فما يمنعك أن تعلن آراءك هذه إلى الناس في صحيفة من الصحف ، أو في محاضرة من المحاضرات ، بل ما يمنعك أن تلقى على الناس دروساً في الأدب ، فيسمع لك الشباب ، وسينتفعون بما تلقى إليهم

من حديث ؟ ثم ما يمنعك أن تمضي معي في هذا الحديث أثناء العشاء ،
وبعده وأثناء الطريق ما دمت قد ضمنت لي أن تصاحبني إلى بيتي البعيد !
قال وهو يضحك ضحكاً غليظاً : قل ما يمنعك أن تكف عن هذا اللغو
وأن تأخذ في الجدل فقد زعمت لي أننا لم نجتمع هنا للتغلو وإنما اجتمعنا لنجد .
وهذا حق ، فما في شيء من هذا كنت أريد أن أتحدث إليك ، وما
إلى شيء من هذا دعوتك الليلة ، وإنما هو تعارفنا وتحدثنا عن الريف قد
شط بي ودفعني إلى الاستطراد ، فلنعد إذاً إلى ما كنا نريد أن نأخذ فيه
ولنتقبل على طعامنا قبل كل شيء .

وأخذنا في حديث جديد لم يصرفنا عن الطعام ، ولكنه لم يجعل
عودتي إلى بيتي ، فقد كان الجدل الذي يريده صاحبي أنه يجب أن يكون
بينه وبينى تعاون في الدرس ، يعلمني بعض ما عنده ، وأعلمه بعض ما
عندي . فهو يرى أن أمري في الجامعة لا يستقيم إلا إذا تعلمت لغة أجنبية
والممت ببعض هذه العلوم التي كنا نجهلها في الأزهر جهلاً تاماً ، والتي
كان جهلنا إياها ينجيل إلى وإلى أصحابي أننا نسمع من المحاضرين في الجامعة
الأعاجيب مع أننا لم نكن نسمع منهم إلا أيسر الأشياء وأهونها .

وهو كان يريد أن يمنحني من ذلك ما يتقصني ، لا يسألني على
ذلك أجراً إلا أن أعوده معاشره كتب الأزهر ، والتصرف في علم الأزهرين ؛
وكانت علوم ثلاثة من علوم الأزهر تخلبه وتشوقه بنوع خاص ، وهي
المنطق والفقه والأصول . فأما المنطق فقد كان أمره يسيراً ، وكنت أرى
أنى أستطيع أن أقرأ معه كتاباً من كتبه المختصرة . وأما الفقه والأصول

فقد كان أمرها أعسر من ذلك وأشق . وأتت لى أن أعلمه علماً لا أحسنه ، وما أظن أنى سأحسنه فى يوم من الأيام ؟ وهو مع ذلك مصمم على أن يدرس المنطق والفقه والأصول على أن يعلمنى الفرنسية ، ويقرأ معى ما أحب من التاريخ وما أشاء من هذه الكتب التى لا بد من قراءتها لمن يريد أن يعيش فى هذا العصر الحديث عيشة لا غرابة فيها . وكان حوارنا طويلاً شاقاً ملتوياً فيه كثير من الاستطراد حتى لقد انصرفنا من داره وقد كاد يسفر الصبح . وما كدنا نبلغ حيناً فى أقصى الجمالية حتى سمعنا المؤذن ينبئ الناس بأن « الصلاة خير من النوم » ، وكنا لم نتم فعلنا أدراجنا . وفى ذلك اليوم جلس معى إلى أستاذ الأصول رجل ليس على رأسه عمامة بل على رأسه طربوش .

وافترقنا بعد الدرس على أن نلتقى فى الجامعة كل يوم إذا كان المساء . وعلى أن نرتب أمرنا بيننا ، يعلمنى الفرنسية وأعلمه المنطق . ومن ذلك اليوم لم نفرق حتى أتيح له أن يسبقنى إلى باريس .

كنا نلتقى فى قهوة بشارع قصر النيل قريبة من الجامعة قبل أن تبدأ المحاضرات بساعة أو أكثر من ساعة ، فنأخذ فى أحاديث مختلفة ، وكثيراً ما كان يشاركنا فى أحاديثنا بعض الطلاب حتى إذا أقبلت ساعة الدرس نهضنا إليه . أما هو فكان ينهض متثاقلاً دائماً ، وأما أنا فكنت أنهض خفيفاً شديد النشاط . وكان يضحك من خفى . وكنت أضيع بثاقله ، وكان يقول لى هون عليك فليأتين يوم تنصرف فيه عن هذه الدروس انصرفاً .

ولم أكن إذا دخلنا غرفة الدرس أفر من مجلسه ، ولم يكن ينقص على الاستماع للأستاذ ، حتى إذا انتهينا من الاستماع انصرفنا إلى داره أو إلى قهوتنا في شارع كوبرى قصر النيل فزعم لى أنه يعلمنى الفرنسية ، وزعمت له أنى أعلمه المنطق ، والحق أننا لم نكن نصنع من هذا شيئاً ، وإنما كنا نغضى فى لغو مختلف متصل كهذا الذى صورت بعضه آنفاً ، وكنا ننفق فى هذا اللغو خير أجزاء الليل ، ثم نفترق . فأما هو فكان ينفق بقية الليل فى القراءة أو الكتابة ثم فى نوم قليل ، ثم يصبح فيغدو على ديوانه . وأما أنا فكنت أنفق بقية الليل فى تفكير طويل مضطرب لا يكاد يذيقنى النوم إلا غراراً ، فإذا دعا المؤذن إلى الصلاة أسرع إلى الأزهـر ، ومضيت وجه النهار مستمعاً للأستاذة أو دارساً مع الطلاب حتى إذا أقبل المساء التقينا كدأبنا فى كل يوم .

وانقضى العام الأول والثانى والثالث من حياتنا فى الجامعة على هذا النحو ، لم يتقدم هو فى درس المنطق ولم أتقدم أنا فى درس الفرنسية ، ولكننا تقدمنا فى إدارة هذه الأحاديث الطويلة المختلفة التى تلم بكل شىء ولا تكاد تتقن شيئاً ، ولكنها تفتح القلوب لألوان من العواطف وتبهيئ النفوس لضروب من الخواطر ، وتغير الطريق التى كان كل واحد منا قد رسمها لنفسه فى الحياة .

كان يريد أن ينفق حياته موظفاً يثقف نفسه ثقافة جديدة فى كل يوم ويلتمس لذته فى القراءة والكتابة والحديث . فأصبح أشد الناس بغضاً لديوانه ، وزهداً فى عمله ، ورغبة فى أن يهجر مصر ويعبر البحر

إلى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم والادب الراقى ، وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه . وكنت أريد أن أكون شيخاً من شيوخ الأزهر مجدداً في التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون للشيخ محمد عبده أستعين على ذلك بما أسمع في الجامعة ، وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد في الصحف ، وما ألتقط من أحاديث المثقفين ، فأصبحت وأنا أشد انصرافاً عن الأزهر ، ونفوراً من دروسه وشيوخه ، وحرصاً على أن أهجر مصر وأعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم الواسع والادب الراقى وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه ، ولم يكن لصاحبي ولا لى إذا التقينا حديث إلهذه الهجرة وأسبابها وإلهذه الأحلام العريضة البعيدة التي لا حد لها ، والتي تستأثر بنفوس الشباب حين يفرضون على أنفسهم بلوغ غاية بعيدة شاقة . وحين تخيل إليهم آمالهم أن بلوغ هذه الغاية أمر يسير .

ثم أصبحت ذات يوم مشغول النفس بما كنا نتحدث فيه أمس ، وإني لجالس في بيتي لم أذهب إلى الأزهر ، وما كان أكثر تخلقى عن الأزهر في هذه الأيام ، وانقطاعى إلى خادى الأسود الصغير ، يقرأ لى قراءة محطمة أقيمها أنا ، وأصلح معوجها في نفسى . يقرأ لى مرة في ديوان من الشعر ، ومرة في كتاب من كتب التاريخ ، وحيناً في قصة من قصص العامة، وإني لجالس ذات يوم إلى خادى الأسود وهو يقرأ على ديوان البحرى ، وإذا الباب يطرق طرقةً عنيفاً ، وإذا صاحبي يدخل وكأنه العاصفة ، وإذا هو يدعونى فى صوت سريع إلى أن أنهض فألبس ثيابى

وأخرج معه ، وأن أسرع ، فإن العربنة تنتظرنا . وأحاول أن أسأله كيف أخرج من ديوانه وما هذه العربنة التي تنتظرنا ، وإلى أين يريد أن يذهب بنا ، ولكنه لا يجيب ، وإنما يستعجلنى ويلج فى الاستعجال ، حتى إذا تركته وذهبت لألبس ثيابى سمعته وهو يذهب ويحىء كالحجون ، ويتغنى فى صوته الغليظ بما يحضره من الشعر . ثم أخرج له فى خطفنى خطفاً . ويعدو بى عدواً حتى يلقينى فى العربنة إلقاءً ، ثم يأمر السائق أن يمضى إلى مكان كذا حيث يقيم فلان .

ثم يهدأ بعض الشيء ، وينبئنى بأن الجامعة قد أعلنت فى الصحف أنها سترسل طلاباً إلى أوروبا ، وقد حددت موعد الامتحان وأنه قد أقبل إلى ، لألقى فلاناً وفلاناً ، وكلهم من أعضاء مجلس الجامعة ، ويجب أن أوصيهم به خيراً . فهو واثق بأنه سيجوز الامتحان على أحسن حال ، ولكنه يخشى أن يغلبه على الفوز بالبعثة أولئك الشبان الذين يتوسط لهم أصحاب الجاه .

وما دمت يا سيدى تعرف فلاناً وفلاناً وفلاناً من أصحاب الجاه وأعضاء الجامعة فليس لك بد من أن تتحدث إليهم ، ومن أن تتحدث إليهم اليوم ومن أن تتحدث إليهم أمأى . لهذا كله تركت عملى ، ولهذا كله استأجرت هذه العربنة ، ولهذا كله استعجلتك هذا الاستعجال ، وما هى إلا أسابيع حتى تم لصاحبى ما كان يريد ، وأصبح عضواً فى بعثة الجامعة وأخذ يتأهب للرحلة إلى باريس .

يونيو في . . .

ليتني لم أسمع لك أيها الصديق ، فقد كنت أؤثر أن أرتحل إلى فرنسا دون أن أذهب إلى ريفنا الحزين لأرى أبوي وأسرتي ولأرى قريتنا ، ولأملأ نفسي من هذه المشاهد الجميلة التي نشأت فيها ، وكنت أرى أنني سأجد في هذه الرحلة القصيرة إلى الريف آلاماً يحسن أن أتجنبها وأن أستقبل الحياة الجديدة بنفس مشرقة وقلب لا يجد حزناً ، ولا يحس لوعة ، ولا يأسى على شيء . وأنا أكره الوداع . وأرى في السفر كما يقول بعض الشعراء الفرنج نوعاً من الموت ، ولا أحب أن أتلقى الموت مهما يكن يسيراً على علم به ، وانتظار له ، وإشفاق منه . وإنما أؤثر أن يفاجئني مفاجأة ، وأن يختطفني اختطافاً ، وأن أخرج من الحياة جاهلاً بخروجه منها كما أقبلت على الحياة جاهلاً بإقبالي عليها .

لقد كنت شديد التردد في الذهاب إلى الريف ، أحس من نفسي ضعفاً شديداً على احتمال هذا الوداع المؤلم ، وداع هذين الشيخين اللذين لم يكونا يحتملان إقامتي في القاهرة بعيداً عنهما إلا كارهين ، فكيف بهما إذا علما أنني لن أقيم في القاهرة . ولن تكون بينهما وبينى ساعات ، ولكني سأعبر البحر الملح العريض إلى بلاد نائية لا تحسب المسافة بيننا وبينها بالساعات ، وإنما تحسب بالأيام . لقد كانا يكرهان أشد الكره إقامتي

فى القاهرة ، هذه المدينة التى لا يتكلم أهلها كما نتكلم ، ولا يعيش أهلها كما نعيش ، والتى يملؤها الفساد ويملاؤها الصلاح فى وقت واحد ، والتى يجرى فى شوارعها الترام والتى يكثُر بين أهلها المحتالون والسراق ، والتى يخرج الرجل من بيته فيها فلعله لا يعود إليه . فكيف بهما حين يعلمان أنى سأقيم فى ذلك البلد البعيد الغريب الذى لا ضلة بينه وبيننا فى لون من ألوان حياتنا المعروفة . والذى لا يعلمان من أمره إلا أنه بلد الفتنة والعبث وموطن اللهو والمجون ، أليس إليه يقصد السراة وكبار الأغنياء والمترفين من سادات الريف إذا اجتمعت لهم المقادير الضخمة من الذهب ، فلا يكادون يقضون فيه الصيف حتى يعودوا وقد صفرت أيديهم من كل شىء ، وهم يقصون من أنبائه وأحاديث العبث والفسوق فيه ما تشيب له الأطفال ، وترتاع له نفوس الرجال . لقد كنت أقدر هذا كله حين كنت تجادلنى فى زيارة الريف قبل أن أبرج الأرض ، ولكنك ما زلت تلح على وتذكرنى وتثير فى نفسى العواطف والذكريات ، حتى استحيت منك ومن أبوى ومن الناس ومن نفسى أيضاً ، ورأيت أنى لا أستطيع أن أفارق مصر ، دون أن أرى هذين الشيخين . فمن يدرى ؟ ! لعلنى أذهب فلا أعود ، ومن يدرى ؟ ! لعلنى أعود فلا ألقاها .

هنالك رحلت إلى الريف وليتنى لم أفعل . فلم أكن أظن أنى سألقى فى هذا الريف ما لقيت فى حزن لاذع وألم ممض ويأس لا صبر معه ولا احتمال له .

لا أصف لك جزع أى ولا سخط أبى ، فحسبك أن تعلم أن أى

لا تصيب من الطعام إلا ما يقيم الأود ، وهى لا تصيبه إلا بعد إلحاح متصل . وأنها لا تذوق النوم إلا غراراً وأنها لا تمسك الدموع ، وإنما ترسلها إرسالاً حتى تنقطع ، وأنها تعتقد اعتقاد يقين أنها قد فقدت ابنها الذى كانت تحبه وتؤثره وتلخره للحوادث والنائبات . وهى تمقت الجامعة وأيام الجامعة والذين فكروا فى الجامعة ، وهى تمقت العلم والذين يحبون العلم ويدعون إليه ، وهى تلعن المدارس وهذا التمدن الذى علم مصر فتح المدارس ، وهى تأسف أشد الأسف وتنلم أقسى النلم كلما ذكرت ذلك اليوم الذى أراد فيه أبى أن يقلد أباك ، فأخرجنى من الكتاب كما أخرج أبوك من أخرج من إخوتك ، وأرسلنى معهم إلى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الإقليم ، هنالك حيث طرحت زى الريف واتخذت هذا الزى الأوربى ، ووضعت على رأسى هذا الغطاء البغيض .

ولست أخفى عليك أنها تنال أسرتك بكثير من لاذع القول ، فهى التى ألفت فى روعنا أن من الخير أن يتعلم الأطفال فى هذه المدارس ، وأن يلبسوا الطربوش ، وأن يلوا ألسنتهم بالرطانة الأجنبية ، وأن يصبخوا موظفين . وهى لا تفهم كيف استطعنا أن نعدل بما تعودت أسرتنا منذ الزمن البعيد من الاختلاف إلى الكتاب حتى نحفظ القرآن ، ونحسن القراءة والكتابة ، ومن الاختلاف إلى الأزهر حتى نحصل شيئاً من علوم الدين ، ثم نعود إلى القرية حيث الجدد والعمل ، وحيث الغنى والثروة ، وحيث الجاه وبعد الصيت .

لأطيل عليك فأنى ثائرة إذا أصبحت ، ثائرة إذا أضحت ، ثائرة إذا

أقبل المساء ، ناثرة إذا جنتها الليل ، ناثرة حتى امتلأ البيت حزناً وسخطاً وبكاء . فأما أبى فتنكر متمنر ، ينذر فيلح في النذير ، ويتلطف فيلح في التلطف ، فإذا أعياه النذير ولم يسعده الاستعطاف ، خرج عن طوره فأسخط من حوله جميعاً ، وجعل حياتهم لا نطاق ، وأقسم جهد أيمانه ليقطعن ما بينه وبينى من سبب وليعيشن منذ الآن كأنى لم أكن له ابناً ؛ ولو أنى استمعت لنفسى أيها الصديق لما أقمت في هذا الجحيم إلا يوماً أو يومين ، ولأسرعت إلى القاهرة فانتظرت فيها معك ومع أصدقائنا هذا اليوم السعيد الذى تطلع فيه السفينة بنا إلى هذا العالم الجديد الذى ملك على نفسى كلها وقلبى كله .

ولكن كيف أستطيع أن أدع هذين الشيخين فيما هما فيه ، ولما أبذل ما أقدر عليه من الجهد لأهون عليهما الأمر بعض الشيء ، ولأردهما إلى بعض الطمأنينة ولأرحل عنهما وهما راضيان غير ساخطين . وإلى لأجدت في ذلك ما وسعنى الجلد ، وأحتال لذلك ما واتنى الحيلة ، وأستعين على ذلك ببعض من له حظ من فهم ، ونصيب من ذكاء وعلم بحياتنا وما تقتضيه من تطور ، وبما بين حياتنا في هذا العصر وحياة آبائنا قبل أن نولد أو حين كنا أطفالاً ، وما أظن أنى سأبلغ وحدى أو بمعونة هراء الناس شيئاً ، فأبى مستيقنة بأنى إذا سافرت فقد فقدتني ، وأبى مقتنع بأنى إن سافرت فقد قطعت بينه وبينى كل سبب .

في ذات يوم أصبحت ضيق الصدر كتيب النفس ، شديد الحرج ، ممتلئاً بهذا العجز المؤس عن رضا هذين الشيخين ، كارهاً أشد الكره

للدّار والقرية ومن فيهما ، فخرجت أهيّم في الريف ألتمس راحة النفس في تعب الجسم ، ولست أزعج أنى خرجت أريد وجهة بعينها ، أو أسعى إلى غاية معروفة ، وإنما هو المشى ، والإبعاد فيه ، والحلوة إلى النفس ، والفرار من لوم اللّائمين ، وعدل العاذلين ، وإلحاح الملحين . وإنى لأمضى أمانى لا أحفل بشيء ولا أقف عند شيء ، وأكبر الظن أن كثيراً من الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم قد لقوني فحيفوني ، وما أشك في أنهم قد أنكروني لأنى لم أسمع منهم ، ولم أرد عليهم تحيتهم ، ولعل كثيراً منهم قد تحدث إلى نفسه بأن هذا أول الشر ، وبأدرة الفساد ، إنه ليعرض عنا ، ويكبر علينا ، ولم يذهب إلى بلاد الفرنج بعد ، فكيف به إذا ذهب إليها وعاد منها .

والله يشهد ما رأيتهم ولا سمعتهم ، ولا أحسست مكانهم منى ، وإنما كنت مشغولاً بنفسى عنهم وعن كل شيء . وإنك لتعلم أنى كثيراً ما حدثك عن كلنى بالخروج إلى الريف . والتروض في الحقول أثناء هذا الفصل من العام ، حين يكون الحصاد ، وحين يشتد النشاط ، وحين تنتشر في ريفنا هؤلاء الفتيات الفقيرات الحسان متبذلات بحكم الفقر ، يطوفن بالحقول ويلتمسن أقواتهن في التقاط ما يسقط من الحب . إنك لتعلم كلنى بالخروج في هذا الفصل ، وأنى أجده لذة حارة حادة في الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي الذى تسبغه الحياة العاملة الجادة على أهل الريف حين يخرجون من أطوار الحمود والحمود . ويفنون في طبيعتهم هذه ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والإنتاج ، لهم جد الأداة وصدقها

واستقامتها وصبرها وإعراضها عن الشكوى ، وبعدها عن الملل والسأم . فما رأيك في أن هذا الجمال الذى يفتننى ويملك على قلبى ويحملنى على الرحلة إلى الريف إذا كان هذا الفصل من كل عام ، لم يصل إلى قلبى ، ولم ينته إلى نفسى فى هذا اليوم . فلم أقف عند الأجران ولم أتحدث إلى المصيفات ، ولم أداعب فتى ولا فتاة من هؤلاء الشباب الذين يملؤهم العمل نشاطاً ومرحاً و يقيناً وثقة وإيماناً . إنما مضيت أمامى لا ألبى على شيء كأنما تدفعنى قوة خفية إلى غاية خفية لم أتبينها ولم أتنبه لها ، إلا فجأة حين رأيتنى واقفاً جامداً وحين أنكرت من نفسى هذا الوقوف وهذا الجمود ونظرت من حولى كأنى أفقت من نوم عميق ، فما يروعنى إلا أن أرانى واقفاً . أستظل بشجرات التوت عند الإبراهيمية ، هناك حيث مدخل المدينة لمن أقبل عليها من الغرب .

تبارك الله فلم أكن إذاً قد خرجت من دارنا ضيقاً بها وبمن فيها ، ولم أكن إذاً قد خرجت من قريتنا فراراً منها ومن أهلها ، ولم أكن إذاً قد همت فى الريف التماساً للخلوة إلى نفسى والراحة مما كنت أظن من عناء ، وإنما خرجت من الدار وخرجت من القرية ومضيت فى الريف أمامى لأننى لم أكن أجدر بدياً من أن أزور هذه المدينة التى أنفقت فيها أحسن أيام الصبى ، ومن أن ألم بهذه الربوع التى ذقت فيها أطيب ما ذقت فى الحياة من لذة قوية طاهرة بريئة من كل لثم .

إذاً فلتعد إلى نفسى النافرة ، وليشب إلى قلبى الجامح ، وليراجعنى هذا العقل المضطرب المشرذم لأستجمع كل ما أستطيع أن أستجمعه من

قوة الحس والعقل والشعور ، لأستمتع بالحياة القوية الخصبية في هذه المدينة الحبيبة إلى نفسي ، الكريمة على قلبي ، ولأأخذ منها بأعظم حظ ممكن من المتاع ، أجعله زاداً لي في هذه الرحلة البعيدة التي أنا مقبل عليها وأجعله ذخراً لي في هذه الإقامة الطويلة التي سأقيمها في ذلك البلد الغريب .
لأملأ إذاً عيني مما سأرى ، ولأملأ إذاً أذني مما سأسمع ، ولأملأ إذاً نفسي وقلبي مما سأجد ، وإنني لأنظر فلا أكاد أرى إلا الإبراهيمية تمتد أمامي ، ويسعى فيها الماء هادئاً حلو السعى ، وإلا هؤلاء الناس يسعون متفرقين ، منهم المقبل من الغرب يحمل إلى المدينة ما يبعث إليها الريف من العروض ، ومنهم الذاهب إلى الغرب يحمل إلى الريف ما تذيع المدينة فيه من التجارة . بعضهم راجل ، وبعضهم راكب ، وقليل منهم يتحدث إلى رفيق ، وكثير منهم يغرق في الصمت كأنما يفكر فيما وراءه أو فيما أمامه . وقليل منهم يتغنى كأنه يستعين بالغناء أو يعين به دابته على احتمال السفر البعيد ، وامرأة أو فتاة تأتي من حين إلى حين ، فتغمس جرتها في الماء حتى إذا امتلأت رفعتها إلى رأسها ونهضت تسعى بها رشيقة رائعة الجمال غامضة في هذا الصمت الذي يحجب نفوس النساء ، ويستتر ما يجول فيها من خواطر يود الرجل لو يعرف منها بعض الشيء . وإنني لأمد سمعي فلا أسمع إلا هذه الأصوات المختلفة التي تأتيني من هذه الحركات كلها ، وهذا اللحن الحلو المتصل المتشابه الذي يأتيني من هذه الأطيار وقد استقرت على الغصون . وكأنها وجدت لذة الراحة وأحسّت رقة النسم واستمتعت بخفض العيش بين

هذه الأوراق النضرة ، فهي تتغنى بالجمال واللذة والأمل وحب الحياة .
وإني لأمد نفسي كلها فلا أحس إلا حياة هادئة قوية نقية تأتيني من
كل وجه ، من الحركات التي أرى ، ومن الأصوات التي أسمع ، ومن
هذا النسيم الخفيف الذي يمسي مساً رقيقاً فيرد إلى النشاط ويحيي في
نفسي الأمل ، ويلقي عني كل ثقل ويكاد يهني جناحين ويكاد يجعلني
طائراً بين هذه الطير . ويكاد يرسل صوتي كما أرسل صوتها بالغناء ، وأنا
أقيم هنا في ظل شجرات التوت ساعة أنعم فيها بالراحة وأستمع فيها
بالحياة وأذكرك أيها الصديق . ثم أتعباً للمضي أمامي ولا نقص على
المدينة من هذا المنحدر ، فرحاً مرحاً نشيطاً طروباً ، كما ينقص النسر .
وهأنذا أمضي وأقدر ما سألتني من المناظر وأريد أن أبلغ أول القناة ،
قناتنا أتذكرها ؟ أريد أن أبلغ أولها وأن أتبع مجراها أسايره على الشاطئ
الجنوبي حتى إذا بلغت ذلك المنحدر الذي تعرفه ، ودعته لحظة
وانحدرت إلى المدينة لأمرّ بهذه الأماكن التي كنا نألفها ، بالدكان
وببيت أم محمود وبيت زنوبة . ثم أمضي حتى أبلغ شارعكم ولعلّي أقف
لحظة عند أوله فأحدث إلى بمبة . أتذكر بمبة ؟ تلك التي كانت
تسرف في النوم وتسرف في الغطيظ ويسمع الناس غطيظها في أكثر
ساعات النهار ، وفي كل ساعات الليل ، إذا مروا أمام بيتها الصغير .
من يدرى ! لعلّي كنت أقف لحظة عند هذا البيت فأعبت بصاحبته
وأسأله عن أصناف الجبن الذي تبيعه وجه النهار . ثم ألهو لحظة بابنها
الأبله ذي الرأس الغريب ، أتذكره ؟ لقد كنا نسميه أبا الرعوس ، إنه

لا يتكلم ولا يسمع ، ولا يكاد يعقل ، من يدري ! لعل كنت ألهو به لحظة ثم ألقى في يده أو يد أمه بعض النقد .

ثم أمضى في شارعكم نحو الشمال فأمر بهذه البيوت التي كثيراً ما نعمت فيها بالجد والهزل ، وأقف عند بيتكم في هذا المنعطف الصغير أمام الباب حيث تتلى أغصان هذه العنابات التي كثيراً ما لعبنا في ظلها وأكلنا من ثمرها واتخذنا بينها الحداثق والحقول . ومن يدري ! لعل أجلس على هذه المصطبة الصغيرة عن يمين الباب إذا خرجت من البيت وأذكرك أو أذكر إخوتك ، فكثيراً ما جلسنا عليها وكثيراً ما لعبنا الطاب . ومن يدري ! لعل الذكرى أن تملأ نفسى وقلبي ، وأن تنسينى نفسها وأن تخيل إلى أنها حاضرة لم تمض ولم تنقض أيامها ، ولعل أعتقد أنى قد أقبلت لأزورك ، ولعل أطرق الباب وأنتظر أن أسمع من ورائه صوتاً معروفاً مألوفاً يسأل عن الطارق . وأنتظر أن يفتح وأن أرى من دونه شخصاً معروفاً مألوفاً يرحب بى ويدعونى إلى الدخول . ثم أنظر فأرى شخصاً لم أعرفه ولم آلفه يسألنى من أنا وماذا أريد ، فأثوب إلى نفسى وأستأنف رحلتى وقد مثلت فصلاً من حياتى الأولى ووجدت فى التمثيل مثل ما كنت أجد من اللذة حين كانت الحياة حقيقة واقعة .

ثم أستأنف رحلتى فأمضى أمامى نحو الشمال حتى أبلغ هذا المنحدر الذى كنا ننحدر منه بعد أن كنا نقضى ساعات على شاطئ القناة أو فى حديقة جرجس أفندى عن شمالنا ، أو فى حديقة المعلم عن يميننا . فأرقى فى هذا المنحدر حتى ألقى القناة فأتابع شاطئها فى طريقى إلى المدينة .

وكنـت أقدر هذا كله وأقدم لنفسي المتاع بهذا كله وأنا أمضى
أمامي ملتمساً مخرج القناة من الإبراهيمية . ولكن ماذا أرى ؟ وأين أنا ؟
وأين القناة ؟ إنى لأنظر فإذا الإبراهيمية تمتد وتمتد ويجرى فيها الماء هادئاً
يحمل الحياة والخصب ، ولكن شاطئها من ناحية المدينة قد اعتدل
واستقام ، فليس فيه عوج وليست فيه فرجة يخرج منها الماء . أين
القناة ؟ لقد كانت تخرج من نحو هذا المكان وكانت تمضى غير بعيد
ثم يقام عليها جسر صغير تمر عليه بعض القطارات . ثم تمضى غير بعيد
وتمضى معها فنبـلغ هذا المنحدر الذى كان ينتهى بنا إلى المدينة . أين
القناة ؟ إنى لا أراها ولا أجـد لها أثراً ، وإنما أرى شوارع وأرى دوراً تقوم
فى هذه الشوارع ، وأرى معالم لم ألقها ، ومناظر لم أرها من قبل . أترانى
أخطأت المدينة ؟ ومع ذلك فأنا أعرفها كما أعرف نفسي ، وأستطيع أن
أمشى فيها وأهتدى إلى مسالكها المختلفة دون أن أفتح عيني كما كنت
تمشى فيها أنت أبها الصديق لا تحتاج إلى أن ترى ولا إلى من يهـدبك
الطريق . أين القناة ؟ لقد سلكت إلى المدينة الطريق التى سلكتها
ألف مرة ومرة ، فلست أشك فى أنى قد بلغتـها وبلغتها هى دون غيرها
من المدن ، فماذا أصابها بعدنا ، وأين ذهبت القناة ؟ إنى لأريد أن
أسأل فأجد حياء فى نفسي من السؤال ، ولكنى أطيل الوقوف وأطيل
النظر عن يمين وشمال ، وأطيل النظر من أمام ومن وراء حتى يـخيل إلى
ولـى من كان يرانى من الناس أنى أبـله قد فقدت الصواب . سم لا أملك
نفسى ، وإذا أنا أسأل عن المدينة وعن القناة وإذا أنا أسمع ، وبـا شر

ما أسمع ! إني قد بلغت المدينة وإن القناة قد ماتت منذ زمن بعيد وإن معالم المدينة قد تغيرت منذ هدم معمل السكر ، ماذا أسمع ! معمل السكر قد هدم ، وماذا بقي إذاً في المدينة ؟ أو ماذا جثت أرى في المدينة ! ماتت القناة ، وهدم معمل السكر ! وغيرت المعالم ! وانتقل أكثر من كنا نعرف في المدينة من الناس .

يا للحزن والأسى ! يا للوعة والحسرة ! يا لليأس والقنوط ! أبلغ العنف بالزمان أن يححو هذا المقدار الضخم من حياة الناس في أعوام قصار . لقد جد جيل وجيل في إقامة معمل السكر وإقامة ما حوله من الدور ، بل من القرى . لقد عاش جيل وجيل ، بهذا المعمل ولهذا المعمل . لقد عاش جيل وجيل بهذه القناة ومن هذه القناة . فكل هذا الجهد ، وكل هذا العناء ، وكل هذه الحياة ، وكل هذه الذكرى ، وكل ما كان على شاطئ القناة وحول معمل السكر من جد وهزل ومن لذة وألم ، ومن حب وبغض ، ومن أمل ويأس ، ومن مكر ونصح ، ومن خداع وإخلاص ، كل هذا يذهب في أعوام قصار لا تكاد تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة ، كأن شيئاً من هذا لم يكن ، وكأن نفساً لم تتأثر بما أثارته الحياة في هذه الأرض من العواطف ، وكأن شفة لم تبتسم لما أنبتته هذه الأرض من مناظر الجمال ، وكأن عيناً لم تبك لما شهدت هذه الأرض من أسباب الحزن والأسى . يا للحزن اللاذع ! ويا للألم الممض ! ويا لليأس المهلك للنفوس ! لقد ماتت قناتنا أيها الصديق ، ماتت ودفن فيها أو صرف عنها ذلك الإله الشاب من آلهة الأساطير الذي كان ينطلق فيها

فرحاً مرحاً هادئاً وادعاً مستبشراً يرسل البشر من حوله جيلاً يثير الجمال على جانبيه . مات هذا الإله الشاب فدفن في مجراه أو طرد هذا الإله الشاب وردّ عن مجراه وفنى في الإبراهيمية . فأصبح ماء من الماء وجرى لا يتميز من غيره ، لا يعرفه أحد ولا يعرف هو أحداً ، لا يثير في نفوس الناس حزناً ولا فرحاً ولا يجرى ألسنتهم بالحديث ، نسيه الناس ، ونسى هو الناس ، بل نسي نفسه أيضاً . إنك لتعرف أن آلهة الأساطير لاحياة لهم إلا إذا أقيمت لهم المعابد وأقاموا هم في المعابد ، فإذا هدمت معابدهم فقد ماتوا أو طردوا من الأرض طرداً ، فقد هدم معبد هذا الإله الشاب ، وماتت القناة فمات هو أو نفي من الأرض وأصبح حديثاً كغيره من الآلهة الذين أصبحوا أحاديث . أتدرى أين أكتب إليك ؟ إلى أكتب إليك في مكان لم يتغير لأن الحضارة لم تدع إلى تغييره ، ولم يتبدل لأن المنفعة لم تأمر بتبديله ، ولأن يد الإنسان لا تكاد تجرؤ على أن تمتد إليه . إلى أكتب إليك عند المسجد ، عند باب البحر ، أتذكر هذا الباب ؟ هو الذي يدخل منه المترفون الذين لا يحتاجون إلى أن يمرّوا بالمبضأة لأنهم يتوضأون في بيوتهم ، ولأن يمرّوا بالمغطس لأنهم يستحمون في بيوتهم ، أتذكر هذا الباب ؟ إنه ينتهي بك إلى قلب المسجد لا إلى فناءه ولا إلى الصحن المنبسط أمامه . إنك إذا دخلت منه لم تكد تخطو خطوات حتى تجد عن يمينك قبر ذلك الغنى الذي بناه . أتذكر هذا الباب ؟ إنك إذا أقبلت عليه وجدت مقعدين من الحجر يكتنفانه عن يمين وشمال ، فأنا أكتب إليك عند هذا الباب ، وأكتب إليك قائماً

لا قاعداً . وأكتب إليك وقد وضعت القرطاس على أحد هذين المقعدين المرتفعين وقمت أمامه أجرى يدي بما تلقى هذه النفس الحزينة على هذا القلم الشقي .

لقد أطلت ولكني لم أحدثك إلا بأيسر الحديث ، لقد أطلت ولكني لم أحدثك عما رأيت ، بل لم أحدثك عما لم أر ، فإن ما رأيته لا يستحق الحديث ، وإنما الذى يستحق الحديث هو هذه المعالم التى أقبلت زائراً لها . فلم أر منها عيناً ولا أثراً ، وسألت عن بعضها فلم أجد بين الناس الذين سألتهم من يعرف لها نبأ أو يروى عنها خبراً . هذه المعالم التى جئت لأراها والتى لم أرها ، هى التى تستحق الحديث . لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتمه . ولن أتمه الآن . فقد آن لى أن أروح إلى قريتنا حيث ينتظرني الحزن والسخط والبؤس والشقاء .

نعم لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتمه ، فما ينبغي أن أحتمل وحدي ثقل هذا الحزن وما أظن أن غيرك وغيرى من الذين نشأوا في المدينة يحزنهم أن يعلموا بموت القناة أو بتغير ما ألفوا من المعالم أو بتفرق من ألفوا من الناس .

وأكتب إليك الآن من قريتنا وقد بلغت مع الليل فألهاني ما شهدت فيها بعض الوقت عما كان يملأ نفسي من الحزن والحسرة ، ولو أنك رأيت للهوت كما لهوت ، ولما استطعت أن تمنع نفسك من ضحكك ينفذ إليه حزن غير قليل . فقد رأيت أهل الدار وقد ملكهم جزع غريب لم يحكموا فيه عقلاً ولا روية ، وإنما اندفعوا فيه اندفاعاً . افتقدوني وجه

النهار فلم يجدونى وانظرونى حتى انتصف النهار ، وهم يظنون أنى قد خرجت لبعض ما يخرج له الشباب من الزهة والتماس التروض والعبث فى الحقول . ولكنى لم أعد مع الظهر ، ولم أعد مع العصر ، فلم يشك أحد فى أنى لم أخرج لزهة ولا لتروض وإنما فررت منهم فراراً ، وعدت إلى القاهرة أنتظر فيها يوم الرحيل .

وتستطيع أن تصور لنفسك ما مائاً نفس الشيخين من هذا الحزن العنيف الذى يملؤه السخط والغضب . وتملؤه الرقة والرحمة فى وقت واحد . لقد كنت ابناً عاقاً يرتحل دون أن يودع أبويه ، فكنت خليقاً أن أثير السخط والغضب والموجدة ، ولكنى كنت ابناً يرتحل إلى بلد نازح ، فكنت أثير الرحمة والحب والحنان ، وكانت غريبة هذه الدموع التى كانت تنحدر من عيني أمى ، لا يعرف الناس أهى دموع الغيظ والحق أم هى دموع الوجد والحنين . وكانت غريبة هذه الألفاظ التى كانت تنطق متصلة على لسان أبى ، لا يعرف الناس أصدرت عن أب ينكر على ابنه عقوقه وجحوده وقسوة قلبه الغليظ أم صدرت عن أب ينفطر قلبه حزناً لأن ابنه قد سافر إلى بلد مجهول ، وهو لا يعرف متى يعود ولا كيف يعود .

ثم كانت غريبة هذه العواطف التى ثارت فى نفسى حين بلغت الدار فرأيت الشيخين راضيين يظهران السخط ، ومسرورين يتكلمان الحزن ، ومبهجين يتصنعان الاكتئاب . ففى قلبهما إذأً عطف على . هذا الغضب الذى أراه وأتأذى له ليس إلا مظهرأً من مظاهر هذا العطف ،

ولوناً من ألوان هذا الحب ، وصورة من صور هذا الحنان ، وإذا فسأسافر إلى هذا البلد الغريب وأنا واثق بأن الذى سيصبحنى فى هذا السفر هو الحب والعطف والحنان لا السخط والغضب والموجدة . ولعل خروجى إلى المدينة لم يكن شرّاً كله وإنما كان فيه بعض الخير ، على كثرة ما أثار فى نفسى من الآلام الملحة الباقية ، فلأول مرة عدت إلى القرية استطعت أن أظفر من أبوى بساعات فيها هدوء وطمأنينة وحديث متصل مختلف ، كأن عودتى إليهما من الرحلة القصيرة التى انقضت قد ألهمتهما عن تلك الرحلة الطويلة التى لم تبتدى بعد . وكان أكثر حديثنا عن المدينة التى زرتهما ، وعمما تغير من معالمها ومن تفرق من أهلها . وكان الشخان يتحدثان إلىّ فى ذلك كله حديثاً هادئاً مطمئناً يغشاه حزن خفيف ، وتتردد فيه ذكريات مؤثرة ، ولكن قوامه الرضى بما كان والسخط على ما هو كائن والأمل فيما سيكون . وكانت أحاديثهما متممة لما رأيت وما علمت ، ومتممة فى الوقت نفسه لتشييد هذا المعبد الحزين الذى أقمته فى نفسى هذه الحياة المنقضية وهذه العهود الماضية وهذه الذكريات التى ستبقى ما بقيت .

نعم كانت أحاديثهما متممة لتشييد هذا المعبد الحزين الذى أقمته فى نفسى والذى يجب أن تقيم مثله فى نفسك لذلك العهد الذى مضى إلى غير رجعة ومات إلى غير نشور . ولا بد من أن أتم لك ما تم فى نفسى من تشييد هذا البناء المظلم الحزين الذى مستررد فيه الذكريات حائرة مضطربة كما تتردد هذه الطير التى تألف الظلمة فى البيت المظلم الحزين .

وماذا تريد أن أقص عليك من أمر المدينة ؟ لم يبق فيها شىء مما كنت تعرفه وتألفه ، ماتت القناة فمات من حولها كل شىء . فأما حديقة المعلم فتستطيع أن تلتبسها فى نفسك ، واجتهد إن استطعت أن تستحضر ما بقى من صورتها وأن تثبته ، فإنى أخشى أن يعبث الزمان بالصورة كما عبث بالأصل . وأما بيتكم فلن تراه إلا فى الخيال يقظان أو فى الحلم نائماً . وكذلك هذه البيوت الحسان التى كانت تقوم على شاطئ القناة والتى كنت تحب أن تدخل بعضها لتحدث إلى محمود وعثمان ، ولتسمع لعزيزة وأمينة . وقد مضى أهلك إلى أقصى الصعيد ، وهبط أهل عزيزة وأمينة إلى القاهرة . فتستطيع أن تلقاهم إن شئت فقد كنا نسمع أنهم كانوا يقيمون فى بولاق قبل أن ينقلهم العمل إلى مدينتنا .

وأنت تعلم من غير شك أن عم حسين قد انتقل إلى السودان بعد أن عصف الموت ببيته فأذوى منه غصوناً وأذبل زهرات . لكنك تجهل أن « حسن كوزو » قد رحل إلى عزبة « المكسرين » وأنت لا تعرف عزبة « المكسرين » ، فهى قطعة من الأرض منحها الحكومة لعمال الدائرة السنية الذين عجزوا عن العمل . فهم يقضون فيها ما بقى لهم من حياة .

فأما سيدنا فقد ارتحل إلى حيث لا يثوب المرتحلون وسبقته حماته الشمطاء ذات اللسان الحاد الذى لم يكن يعرف السكن . واستأنفت زوجه الشابة حياتها سعيدة مع ذلك الذى كان يدور حول بيتها كما كان يدور الأحوص حول بيت أم جعفر . وفقدت عالية أم غريب زوجها

الضرير ، ثم انتقلت مع أبنائها إلى حيث لا يعلم أحد . وطارت أم محمود مع غوى من أهل المدينة ، ذهب بها إلى حيث لا ينكر الناس عليه غوايته . ولقيت زنوبة من دهرها شرّاً ونكراً . فحظنها زوجها جهرة بعد أن كان يخونها سرّاً ، وآثر عليها بنت أخيها الفتاة . ثم مضى الدهر في تنكره لها ومكردها ففقدت بصرها ، وعاشت أعواماً لا ترى النور ، ثم رأفت بها الأيام فأخرجتها من هذا العالم الذى لا يكمل الصفو فيه . أتريد أن تعلم أكثر مما علمت وأن تحزن أكثر مما حزنت ؟ فقد هدم الكتاب هدماً ، وذهب ما كان حوله من الأشياء ومن كان حوله من الناس .

نعم هدم الكتاب هدماً ، وما أعرف أن شيئاً مما رأيت أو شيئاً مما لم أر ، ترك في نفسى من الآثار المولدة والندوب التى ستبقى ما بقيت مثل ما تركه فيها منظر الكتاب المهدم . فما تزال معالم الكتاب باقية ، على نحو ما كانت تبقى معالم الديار لقدماء الشعراء . فالكتاب الآن طلل تمحوه الأيام شيئاً فشيئاً وتبقى من اثاره إلى الآن بقية مؤذية حقاً . لقد ماتت القناة عن شماله وسويت الطريق عن يمينه ، ونزع منها ذلك الخط الحديدى الضئيل الذى كانت تمضى عليه تلك القطارات الزراعية الصغيرة تحمل القصب إلى معمل السكر أثناء العمل وتحمل التراب والحصى ، إذا كان الفيضان ، لردم هذا المستنقع العظيم الذى كان يؤذى المدينة في كل عام .

نزع هذا الخط وسويت هذه الطريق وقلت الحركة عن يمين الكتاب

وشماله . وعملت معاول الهدم في الكتاب نفسه وفيما كان يجاوره ويوازيه من البناء حول دار المأمور ، فالمنظرة التي كانت أمام الكتاب والتي كان ينزل فيها أضياف المأمور قد هدمت كما هدم الكتاب ، وأصبحت طلالاً مثله . والبيت الذي كان يقوم وراء الكتاب وتعيش فيه أسرة عم نوح قد هدم كما هدم الكتاب وانتثرت هذه الأطلال في هذا الفضاء انتثاراً مخزناً مؤثساً ، ولكن مكان الكتاب بينها يثير في النفوس أسى غريباً ولوعة محرقة حقاً . إن أرضه ما زالت مرصوفة بهذه الأحجار التي كان يغسلها التلاميذ مساء الأربعاء من كل أسبوع بعد أن يقرعوا الحزب ، وإن عتبه ما زالت قائمة ، ولم تمح جدرانها كلها محواً ، وإنما بقي منها شيء يرتفع هنا وينخفض هناك ، وتستطيع أن تبين مواضع المقاعد الخشبية التي كانت مسندة إلى هذه الجدران والتي كان يجلس سيدنا على أحدها عن يمينك إذا دخلت ويجلس العريف على أحدها الآخر عن شمالك إذا دخلت ، ويجلس المترفون من التلاميذ على سائرها ثم يختلط بينها الفقراء وأبناء الشعب ، على حصر ممزقة تستر بعض الأرض وتبين عن بعضها الآخر ، ولا تكاد تجدد إلا حين تستحيل إلى قش لا يكاد يتصل ، وحين يجود بعض الأغنياء بما يقوم مقامها .

قل ما شئت ، واعجب بالشعر ما أحببت ، واحفظ من وقوف الشعراء على الأطلال وبكائهم على الديار وذكرهم للطاعنين ما استطعت أن تحفظ ، فسيظل هذا كله في نفسك كلاماً أجوف لا يحتوي شيئاً ولا يدل على شيء ، حتى تقف موقفاً منذ حين كالذي وقفته بين هذه

الأطلال عن يمين وشمال ، وحتى تذكر ما ذكرت من هذه الحياة
القوية الغنية الحصبة التي كانت تملؤها الحركة والنشاط ، وتضطرب فيها
الأماني والآمال ، وتختصر جيلا مضى وتنبئ عن جيل مقبل ، فذهبت
هباء وتفرقت في الأرض ، ولم يبق منها في هذا المكان إلا صدى
لا يحسه الناس جميعاً ، ولا يقدرُون وجوده ، وإنما يحسه مثلك ومثلي من
الذين اشتركوا في هذه الحياة وتأثروا بها وملأوا من صورها النفوس
والقلوب . لقد وقفت على الكتاب وقفة طويلة وجعلت أنظر حولي فلا أرى
إلا هذه الأحجار المتناثرة وأمد أذني فلا أسمع إلا هذا الصدى الذي
كان يضطرب في الفضاء ، ولكني مع ذلك كنت أرى رفاقنا جميعاً ، وقد
أخذوا مجالسهم في الكتاب ، هذا يقرأ ، وهذا يسمع ، وهذا يلغو ،
وهذا يكتب ، وهذا يلعب ، وكنت أحلل هذا الصدى المتردد فأجد
فيه هذا اللفظ الذي كان يسمع من مكان بعيد فيدل سامعه على مكان
الكتاب ، ولولا أنني ما زلت محتفظاً ببقية إرادة ، وفضل من القدرة على
ضبط النفس لجننت ولتحدثت إلى هؤلاء الأشخاص الذين كنت أراهم
يجرون ويلعبون ، ولشاركتهم في الجري واللعب . لا أخفي عليك أنني
ملكيت نفسي فلم يذهب بها الجنون ، ولكني لم أملك عيني ، ففاضت
الدموع . هممت أن أمضي ولكني لم أسلك الطريق العامة حيث كان
يمتد الخط الحديدي ، وإنما هممت أن أمضي نحو بيت المأمور ، فما
راعى إلا النخلتان اللتان كانتا تقومان بين الكتاب وبيت نوح ، وإذا
هما قائمتان كعهدهما تبسطان ما كانتا تبسطانه من الظل ، وتحملان

ما تعودتا حمله من التمر الذى لم يتم نضجه بعد ، وتلقيان ما كانتا تلقيان من بعض هذا التمر الذى كنا نلتقطه فنعبث به ، ثم كنا نلتقطه فنأكله إذا قارب النضج ، ثم كنا نزدحم عليه ونتنافس فيه إذا تم نضجه ، وما زالت النخلتان قائمتين بين هذه الأطلال المهدامة ولكنهما قد فقدتا ما كانتا تبعثان من بهجة ، وظهرت عليهما كآبة عميقة حزينة مثيرة لليأس كأنهما تجدان الوحشة فى هذا المكان الذى خلا بعد عمران ، ومات بعد حياة .

لقد وقفت عند هاتين النخلتين لحظة ما أعرف أنى قضيت مثلها ، ولقد ذقت فى هذه اللحظة من لذة الذكرى وألم الحسرة ما لا أعرف أنى ذقت مثله قط . وإنى لأذكر الآن هاتين النخلتين فأمنحهما حباً ومودة وأهزأ بهذا الامتحان الذى أخضعكم له ذات يوم أستاذ من أساتذتكم فى الجامعة حتى ذكر حلوان ثم استطرد إلى نخلتى حلوان ثم كلفكم أن تبحثوا عن هاتين النخلتين أين كانتا وماذا قيل فيهما من الشعر ومن ذا تغنى بهما من الشعراء ! لقد أجهدت نفسك فى البحث ، ولقد كنت تعجب بشعر مطيع فى هاتين النخلتين ، ولقد كتبت كلاماً كثيراً عما عرفت من أمر هاتين النخلتين ، ولقد كنت راضياً عن نفسك لأن الأستاذ كان راضياً عنك ، ولكن ماذا تركت نخلتنا مطيع فى نفسك من أثر ، وماذا بعثنا فى قلبك من عاطفة ؟ إنما هو كلام يروى ثم يثير فى أنفسكم العجب والتهوؤ والغرور أكثر مما يثير فيها الشعور الصادق بالجمال الصادق . أسرع أيها الصديق إلى مدينتنا فألم

يوماً أو بعض يومين أن تمحي معالم الكتاب محواً ، وقبل أن تجتث النخلتان اجتثاثاً ، فقبل أن تتم الحصاره عباراتها الشاهقة ، على هذه التنبؤ العريضة التي سبنا فيها الصبا ، وما كان يملؤه من الفرح والمرح من الحياة والنشاط . أسرع إلى النخلتين فاجلس إليهما واستظل بظلهما ثم أنشد شعر مطيع ، فستفهمه وستدوقه وستشعر بما يصور من الحزن كما شعر به مطيع نفسه .

ليت الأيام تتيح لي أن أحقق أمنية تضطرب في نفسي فأجمع نقرأ من رفائنا ونقصد إلى الكتاب وإلى ما حوله من الأطلال وإلى النخلتين فننظر ونسمع ونجلس ونحدث ونحيي عهدنا القديم ساعة أو بعض ساعة .

لست أدري أتقرأ هذا الكتاب الطويل أم تضيق به ، وتشفق من طوله ، وتكره أن تنفق في قراءته من وقتك ما أنت في حاجة إليه ، لتستعد لدرس من الدروس ، أو لتقرأ في كتاب من الكتب ، أو لتحفظ من بعض الدواوين ، ولكني لم أكن أستسيغ أن أكتب إليك أقصر مما كتبت ، ولولا إشفاقك عليك وراثتي لك لكتبت إليك أطول مما كتبت ، فقد تقدم الليل حتى تجاوز نصفه ، فكل شيء ساكن من حولي إلا هذه الأصوات التي تبلغني من حين إلى حين ، أصوات الخفراء حين يتنادون أو أصوات الديكة ، فتحسب أن الفجر قد لاح ، فتصدق بنداؤها العذب لتلقاه بالتحية ولتنبيئ الناس بمطلعه . ثم تعلم بعد ذلك أنها قد خدعت ، أو هي لا تعلم شيئاً وإنما يعصى بها النوم

فى أمواجه المتصلة المتلاطمة فتعود إلى الصمت وتفرق فيه . ولعلى أجرد
نفسى من خواطرها ، وأسلها مما حولها سلاً ، وألقها فى هذا السكون
تعليقاً ، فأسمع أصداء تردد ويدعو بعضها بعضاً ويحبب بعضها
بعضاً ، وتنصور لى ذلك الصدى الذى كنت أسمع فى الكتاب ثم
أريد أن أحلل هذه الأصداء وأردها إلى أصولها ، وأتخذ لها أشخاصاً
أحياء ، فيخيل إلى أنها نفوس الأجيال التى سكنت قريتنا على اتصال
الزمن ، ويخيل إلى أن أجسام الناس والحيوان والأشياء هى وحدها التى
تزول ، وهى وحدها التى تتغير ، وهى وحدها التى تبحر الأرض . فأما نفوس
الناس والحيوان والأشياء فتصلة بالأرض لا تبحر ، مضطربة فى
الجو لا تفارقه ولا تزول عنه ، وإنما هى تملؤه حياة لا يشعر بها
الأحياء إلا إذا سلوا أنفسهم من المادة سلاً ، وعلقوها فى سكون الليل
تعليقاً . لقد تقدم الليل حتى جاوز نصفه وكاد يبلغ ثلثيه ، ولقد سكن
من حولى كل شىء ، وأنا لا أسمع دعوة النوم ولا أحس مقدمه ،
ولا أرغب فيه ، وإنما أنا حريص كل الحرص على أن أبقى مع هذه
الذكرىأت أتحدث إليها . وأسمع منها حين أتخذها موضوعاً لما أحمل
هذا الكتاب إليك من حديث ، وما أظن أن الفجر سيلقانى نائماً
بل أنا واثق بأنه سيلقانى يقظان ، ولولا أن يراع أهل الدار وأن تظن
بى الظنون لخرجت لاستقباله فى الفضاء فأنا أكره أن يدخل على نوره
من النافذة ، كأنه اللص ، وأحب أن ألقاه فى الفضاء الطلق ، فأملأ
به نفسى وقلبى ، وأتمس فى ضوئه الهادئ الحلو هدوءاً لهذه الثورة التى

لا أستطيع أن أكبح جماحها ، ولا أن أنهى بها إلى السكون .
يا للحزن ويا للأسى ! يا للوعة ويا للحسرة ! ويا لليأس ويا للقنوط !
لقد أقبلت على الريف وكنت أظن أنى سأملأ عيني وأذنى ونفسي وقلبي
بما أحببت وبما ألفت ، وأنى سأحمل هذا كله إلى حيث أريد أن أقيم
وراء البحر ، فلم أجد شيئاً ، وهأنذا سأعود إليك بعد أيام ، ثم أرحل
إلى مصر بعد أسابيع لا أحمل فى نفسى إلا أطلالاً مهتمة ، ونخلتين
قائمتين صامتين تجدان الوحشة ، وتبعثانها من حولها ، ما أكثر
ما كنت أريد ! وما أقل ما وجدت ! وما أكثر ما يعبث بنا من الآمال !
تقبل تحية صديقك اليائس .

* * *

وأنا أعترف أنى تلقيت هذا الذى هو أشبه بالسفر منه بالرسالة فى
شئ من الخوف والإشفاق من طوله ، ولكنى تعودت من صديق
طول الحديث واختلافه وكثرة الافتنان فيه ، فأبقيته يوماً كاملاً لم أقرأه ،
ولم أعرف ما فيه حتى فرغت له آخر النهار فقرأته ، ولكنى لم أحس له
من الأثر مثل ما أحسست له حين أعدت قراءته فى هذه الأيام . وكأن
الأمم بين صديق وبينى كان بعيداً أشد البعد ، فقد كنت أقدر
الذكرى وأنس إليها وأحب التحدث عن العهود القديمة ، ولكنى لم
أكن أكلف بهذه العهود ولا أحفل ولا آسى عليها
ولعلى كنت مدفوعاً إلى أن أسخر منها سخرأً غير قليل ، فقد كنت
مفتوناً بحياتى فى القاهرة راضياً عما كنت ألتقاه كل يوم من جديد الأمر ،

مبتهجاً بما كانت تفتح له نفسى كل ساعة من العلم . وكان هذا النشاط العقلى يهرنى ، ويسحرنى ويدفعنى إلى طور من أطوار الحياة يشبه أن يكون مسكراً متصلاً . وكان تذكر العهود القديمة يؤذبنى لأنه يخرجنى من هذه الحياة اللذيذة بعض الشيء ، ويردنى إلى تلك الحياة التى طالما ضقت بها أيام كنت صبياً ناشئاً فى الريف . فلم أحفل بالقناة ولا بموتها ، ولم أحفل بالخط الحديدى ولا بانتزاعه ، ولم أكثرث للكتاب ولم أعرف للنخلتين خطراً . وما قيمة الكتاب وما قيمة النخلتين ولم يقل أحد فى الكتاب ولا فى النخلتين شعراً ، ولم يتحدث كتاب قديم عن الكتاب ولا عن النخلتين ولا عن القناة ولا عن الخط الحديدى ، ولا عن معمل السكر . والله عز وجل قادر على أن يغفر لى الخطيئة ويعفو لى عن الذنب ، ويتجاوز لى عن السيئة ، فقد لقيت ما أنبأنى به صديقى من موت سيدنا بشيء من الابتسام وهز الكتفين . أما الآن فأرانى مع صديقى متلمساً أصل القناة باحثاً عما ألفنا من الأحياء والأشياء ، حزيناً ملتاعاً بل يائساً قانطاً ، أما الآن فلانى أقرأ هذا الكتاب فأسال نفسى : أين ذهب الكتاب والنخلتان ؟ وماذا قام فى ذلك المكان ، الذى قضينا فيه شطراً من حياتنا لعله خير ما أتيج لنا أن نحيا .

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً فلا رأى للمضطر إلا ركوبها
ألقى هذا البيت بصوته الغليظ ومد قافيته مدّاً طويلاً . وهو
يضرب الأرض بعصاه ، ويلقى طربوشه على مائدة كانت أمامي ، ثم
جلس لم يبدأني بتحية ، ولم ينتظر أن أردّها عليه ، وكأنه اعتقد أن هذا
البيت الذي ألقاه على هذا النحو خير تحية يمكنه أن يهديها لي ، وأن
دهشتي لمقدمه ، وانتظارى لتفسير هذا البيت ، والإبانة عما أراد به ،
خير رد عليه . وأكبر الظن أنه لم يكن يرى التحية والرد عليها إلا لوناً
من تنبيه القادم إلى مقدمه وتنبيه المقيم إلى أن أحداً قد أقبل عليه ، وما دام
هو قد بلغ من ذلك ما كان يريد فليس عليه بأس من أن يسند عصاه
ويتخفف من طربوشه ويجلس إلى المائدة التي كنت أجلس إليها مائلاً
الجو بضحك العريض كما تعود أن يفعل كلما أتى شيئاً غريباً ، ثم يرفع
صوته بهذه الجملة التي يمتلئ بها بيتنا الصغير كله « هات الشاي يا غلام » .
ثم يستريح قليلاً من الحركة ومن الكلام ثم يستأنف حديثه من
حيث انتهى ، وهو إنما انتهى عند إنشاد البيت ، فيقول : والأسنة هنا
يا سيدى هي هذه الزيارات التي سننق فيها آخر النهار ، وأول الليل ،
حتى إذا ملأنا آذاننا من لغو الناس ، وملأنا آذانهم من لغونا . وقلنا
ما لا نعتقد ، وسمعنا من الناس ما لا يعتقدون ، وشبع بعضنا من الكذب

على بعض ، انصرفنا إلى خلوتنا تلك في أعلى الربوة ففرغنا لجدنا الذى خلقنا له ، وأخذنا منه بحظ موفور قبل أن يفرق بيننا الرحيل : وأظن أنك لن تمنعنى فى أن نبدأ زيارتنا بشيخك الأديب ، فإنى قد أحبيته منذ عرفته ، ولست أدرى أيجبى أم يبغضنى ، ولكن ذلك لا يعنينى فحسبى أنى أحبه ، وأنى أريد أن أراه وأن أستمع إليه ، وأنى أريد أن يكون ذلك فى هذا المساء ، لأننى سأشغل منذ غد بما يصرفنى عن الزيارات . والخير أن توطن نفسك على أنك ستخرج معى الآن فلا تعود إلى بينك إلا إذا أسفر الصبح ، وغمرت الشمس مدينة القاهرة بضوئها الحار المحرق ، وإن لم يرتفع النهار . وما أحب أن تجادلنى فى ذلك أو أن تنكره على ، أو أن تتعلل بهذه التعللات التى لا تغنى فإنى مصمم على أن يتم ما أريد مهما تكن المصاعب ، ومهما تخترع من التعللات . ولولا أنى نهضت وأتيت حركة الذى يريد أن ينصرف ويترك له الغرفة وما فيها لما انقطع هذا السيل المندفع عن التدفق ، ولما كف هذا الغيث المنصب عن الانهمار . ولكنه رآنى قائماً أتحوّل إلى باب الغرفة وقد رفعت يدى كأنما أريد أن أضعهما على أذنى ، فأغرق فى الضحك ، ثم ردتى إلى مكانى وهو يقول : « لك ما تريد فسأبلعك ريقك » ، فقد يخيل إلى أنى منذ أقبلت لم أرحك ، ولم أرح نفسى من الكلام ، ولكن لا تلمنى فى هذا ولم غلامك هذا الأسود الصغير ، فلو أنه أسرع بالشأى وشغلنى به وبيعض ما يصحبه من الطعام ، لانصرفت إليه بعض الشئ عن هذا الكلام المتصل . »

ثم صمت متكرهاً وتعجلت خادمي فجاءه بما كان يريد ، واستطعت أن أتحدث إليه ، وأن أسمع منه كما يتحدث بعض الناس إلى بعض في هدوء واطمئنان وشيء من الرزانة والتفكير .

ولم أشك مع ذلك في أنه كان مضطرب النفس ، شديد الاضطراب مدفوع القلب إلى ثورة عنيفة لا يعرف منها مخرجاً ولا ينتهى منها إلى قرار . فقد أخذت أتعلل عليه وأظهر كراهة الخروج ، ثم أقيم الدليل لأثر الدليل على أنى إن خرجت فلا بد من أن أسرع إلى العودة لأنى لا أستطيع السهر في هذه الليلة . كان كلما سمع منى تعلق محاسنها محوياً ، وكلما سمع منى دليلاً نقضه نقضاً ، حتى إذا أعياه ذلك وضاق بهذا التمتع الطويل نهض كالمغضب وخرج من الغرفة واندفع إلى الغرفة التي كان أخى قد خلا فيها إلى بعض كتبه ، فدفع بابها دفعاً ، ولم يكده يجد أخى حتى أنبأه بأنه سيضطجبنى في بعض الزيارات ثم سيقضى معى أكثر الليل أو كله في حديث طويل ذى بال ، وخيره ضاحكاً صاخباً بين أن يكون هذا الحديث الطويل الخطير هنا في هذه الغرفة أمام غرفته أو هناك في بيته البعيد على تلك الربوة مما يلي القلعة .

وكان أخى أشد الناس ضيقاً بالناس ، وأكثرهم نفوراً من الزيارة والزائرين ، وأشدهم بغضاً لهذا النوع من الحديث الطويل ذى البال ، الذى يظن أصحابه أن له خطراً ، وإنما هو وسيلة من وسائل قتل الوقت ، والانصراف عما ينبغي للطلاب الجاد من درس وتحصيل . فلم يكده يسمع حديث صاحبي حتى أجابه متعجلاً أن أخرجه معك متى شئت وأعدته

متى أحبيت . فلست أطلب إليك ولا إليه إلا أن تريحاني من لغوكما الذى لا حد له ، فأخى يعلم ، ولعلك تعلم أيضاً ، أنى غارق فى الاستعداد للامتحان .

قال ذلك وأعرض عنه إلى كتبه فعاد إلى جذلان مبتهجاً وهو يقول :
لم تبق لك حجة ، وإنما أنت منذ الآن ملك لى ، فلا بد مما ليس منه بد .

ولم يكن بد من أن أذعن له ، وأنزل على حكمه وأطوف معه فى بعض أحياء القاهرة نزور هذا لماماً ونزور ذاك فنطيل عنده الإقامة ، وهو فى أثناء هذه الزيارات وفى أثناء الطريق التى كنا نقطعها من بيت إلى بيت ، مندفع فى مزاح لا ينقطع بصوت مرتفع كثيراً ما كان يلفت إلينا الناس ، وكثيراً ما كان يحملنى على أن ألح عليه فى أن يخفض منه بعض الشيء وعلى أن أقسم له أنى لست أصم وأنى أسمع همسه فضلاً عن حديثه المعتدل . وأن أحتج له على أن الناس ليسوا فى حاجة ولسنا نحن فى حاجة إلى أن يشاركونا فيما نأخذ فيه من عبث وجد . وكثيراً ما اضطرب أصدقاؤنا الذين زرناهم إلى أن يظهروا الضيق بصوته المرتفع الذى لا يخفى شيئاً ، ولا سيما هذا المزاح الغليظ المسرف فى الحرية الذى يرتفع به صوته حتى يخشى أصحاب الدور أن يبلغ النوافذ وأن ينتهى إلى آذان لا ينبغى أن ينتهى إليها .

ومهما يكن من شيء فقد كانت صحبتى له هذا المساء ، لذيدة حقاً ومتعبة حقاً ، كانت لذيدة لهذه الفنون المختلفة التى كان يطرقها فى أحاديثه

المتصلة ، ينتقل من بعضها إلى بعض في غير تمهيد ، ولا تنبيه ، ولا مناسبة ، وإنما هو الاستطراد كما يفهمه هو لا كما تفهمه أنت ، ولا كما أفهمه أنا ، معتمداً على هذه المناسبات الظاهرة التي تدعو إلى الشرح والتفسير ، وتبيح الانتقال من موضوع إلى موضوع ، وإنما هي مناسبات خفية كان يجدها هو ولم تكن نجدها نحن . فكان استطراده من موضوع إلى موضوع ، أشبه شيء بالوثوب والقفز من شاطئ القناة إلى شاطئها الآخر دون اصطناع جسر أو شيء يشبه الجسر . وكنا نجد في استطراده هذا ما يلهمي ويضحك ويعجب ، وكنا نقدر دائماً أنه إذا وثب من موضوع إلى موضوع أو قفز من حديث إلى حديث ، فلن يعود إلى الموضوع الذي وثب منه ولا إلى الحديث الذي تجاوزه ، ولكنه كان يقهرنا فلا ينسيه موضوع موضوعاً ولا يشغله حديث عن حديث ، ومن أجل هذا استحالت اللذة التي كنا نجدها في الاستماع له إلى تعب مضمّن للعقل ، منهك للقوى . ويكفي أن تتصور رجلاً يسير بك أو يعدو بك في طريق ثم لا يلبث أن يعدل بك إلى طريق أخرى ثم لا يلبث أن يردك إلى الطريق الأولى فيعدل بك إلى طريق ثالثة ، وهو يمضي في ذلك جاهداً متصل الجهد ، لا يريح ولا يستريح . فأنت واجد في هذا اللذة ، وأنت مستقبله بالنشاط والمرح ، ولكنك لا تلبث أن يدركك الإعياء والسأم وأنت تتمنى على صاحبك أن يعفيك من هذا الاضطراب أو يمضي بك على صراط مستقيم .

وكم تمنينا وكم ألحنا في التمتي ، لكن عقل صاحبي كان قد

ركب على هذا النحو . فلم يكن يستطيع أن يمتص في تفكير أو روية أو حديث دون أن ينحرف يمينا أو شمالا ثم يعود إلى طريقه الأولى ليعود إلى الانحراف عنها . ومن يدرى ! لعل الحياة الواقعة ولعل الحقائق أو الأمور المعقولة التي تعمل فيها عقول الناس لا تستقيم ولا تسمح بأن يستقيم التفكير فيها ، وإنما هي تنحرف وتعوج وتلتوى وتكره العقول على أن تسايروها في الانحراف والاعوجاج والالتواء ، ولعل عقولنا نحن أوساط الناس يسيرة ساذجة ليست تامة التكوين ولا كاملة الأداة ، فهي ترى الأشياء سهلة ميسرة ، وتسلك في التفكير طرقاً معتدلة مستقيمة وتتعب من الانحراف والالتواء ، أى من التفكير الصحيح . ومهما يكن من شيء فقد كان هذا الاستطراد المتعب لازمة من لوازم صاحبي إذا فكر أو كتب أو تحدث . فإذا أضفت إلى هذا صوته الذى لم يكن يعرف الخفوت ولا يحب الهمس ، وإذا أضفت إلى هذا أنه صمم في هذا المساء على ألا نركب عربة ولا نخذ تراماً ولا نستعين بأداة من أدوات الانتقال مهما تبعد بنا الطريق لأنه قد أزمع أن نجن في هذا المساء . وكان الجنون عنده أن نهم في الأرض حتى إذا أجهدنا المشى ، استرحنا لحظة ثم استأنفنا الهيام حتى ينتهى بنا الإعياء إلى أقصاه . أقول إذا لاحظت هذا كله ، وأضفت بعضه إلى بعض لم تشك في أى كنت متعباً مكدوداً حين بلغنا منزله في أعلى الربوة مما يلي القلعة وقد تقدم الليل . وليس من جدال في أنى لو ملكت يدى ونفسى — كما يقول الفرزدق — لتخلفت عن مرافقته ، ولتركته في

بعض الطريق ، ولكنه قد احتاط لذلك عامداً أو غير عامد ، فأبى على أن أصرطحب غلامى الأسود الصغير ، وقال ارفق به ودعه يسترح ، ولعل أخاك أن يحتاج إليه . وما دمت ستفق الليل معى ، وما دمت سأردك إلى بيتك مع الضحى فلسنا فى حاجة إلى رقيب يسمع ما نقول ، أو يحصى ما نهذى به ، وقد لا نكون فى حاجة إلى أن نسمع غطيطة حين يطول عليه حديثنا ، ويثقل عليه سهرنا فيأخذه نومه العميق ، ويهوى به عن كرسيه إلى الأرض كما كان ذلك ليلة كنا نطيل الحوار فى بعض قضايا المنطق التى كنت تراها واضحة كل الوضوح ، وكنت أراها أنا غامضة كل الغموض .

واستطاع على هذا النحو أن يخرجنى من غير خادى ، وأن يتحكم فى أذنى وفى رأسى وفى رجلى كما أراد . حتى إذا انتهى بى إلى داره نحو منتصف الليل كنت محطماً أو كالمحطم ، وكنت لا أتمنى إلا مجلساً أستريح إليه من هذا العناء ، وكنت واثقاً أنى لن أبلغ غرفته الحرام ولن أجلس على ذلك المجلس من الخشب تغطيه الوسائد . حتى أنثنى على أحد جنبى وأستسلم للنوم .

ولكنه لم يمكنى حتى من هذا ، فما كاد بابه يفتح لنا ، وما كادت خادمته تهدينا بمصباحها الفضيل إلى غرفته الحرام حتى أقبلت بما عندها . وليتها لم تفعل . فقد أقبلت بإبريق الشاى ومن حوله قطع من فطير الريف . وأقبل هو على الشاى يصبه فى الأكواب وهو يقول فى صوت ماكر : هذا هو الشاى الذى تعتمدون عليه فى إنفاق الليالى البيض حين

يطلب إليكم الدرس ألا تناموا . والدرس يا سيدى يطلب إلينا فى هذه الليلة ألا ننام ، فاشرب من هذا الشاى واستعن عليه بهذا الفطير حتى إذا أخذت من الراحة والغذاء والرى بنصيب أخذنا فى درسنا المعضل العويص .

وقد كنت متعباً مكدوداً ولكنى كنت جائعاً ظمآن أيضاً . فلم أجد قدرة على الامتناع عن أخذ ما كان يقدم إلى من طعامه الثقيل ، وشرابه الذائد للنوم . وأقبل هو على ما حملت الفتاة ، فأصاب منه فى غير رفق ولا اقتصاد ، حتى إذا أحس أن معدته قد استقرت فى جوفه ، وأن أعصابه قد تنهت بعد الحمد ، أخذ فى حديثه الذى كان يقدم بين يديه بهذه المقدمات الطوال الثقال التى كانت تلدوى بنا وتحملنا ألوان العناء منذ العصر . وكان انتهاءه إلى الأخذ فى هذا الحديث بعد الجهد الذى لقينا ، والمشقة التى احتملنا ساعات متصلة ، أشبه شىء بخلاص الأم بعد أن ثقل عليها الوضع ، وابتلاها بالآلام المضنية المنهكة . وكان صوته وهو يأخذ فى هذا الحديث هادئاً يحاول الرقة وتجرى فيه عذوبة مؤلمة بعض الشىء كأنه صوت المريض وهو يخرج من المرض أو يخل فيه . قال : أتعلم فيم أرقتك الليلة وكلفتك ما كلفتك من هذه الأهوال التى لم تكن تنتظرها ولا تحب أن تلقاها ؟ قلت : لا ، وإنى لأنتظر أن أعلم ذلك منذ عزمت على فى الخروج معك ، ولو أنك استمعت لى وأردت بى الراحة ، لألقيت إلى حديثك منذ خرجنا ولأرحت نفسك وأرحتنى من هذا العناء الطويل .

قال : لم يكن ذلك يستقيم يا سيدى فلكل شىء موعده وإبانه . وهذا الحديث لا يصلح له إلا الليل إذا تقدم وتجاوز نصفه وغمر كل شىء بهدوئه العميق . على أن جهنك لن يذهب عبثاً ، فإنى أعرفك تحب المسائل المعضلة ، وتجد فى حل المشكلات لذة ، فأليك مسألة معضلة فواجهها كما تعودت أن تواجه مسائل المنطق والفلسفة والأصول . أيهما أهون أن يحتمل : الظلم أم الكذب ؟ ولست أخفى عليك أيها القارئ أنى وجدت حين سمعت هذه المسألة ، ولم أستطع أن أسرع إلى الإجابة عنها . وظن هو أنى أفكر فأمهلى لحظة ثم سألنى عن رأيى فقلت : لا أدري لأنى لا أفهم معنى للسؤال ، فالظلم قبيح ، والكذب قبيح ، والخير للرجل الكريم الفاضل أن يتجنبهما معاً . قال : فإن لم يكن له بد من أحدهما . قلت : دعنى من الأمور العامة ، وألق إلى حديثك فى صراحة ووضوح فلعلى أفهم عنك ولعلى أستطيع أن أرد عليك . قال فى ضحك هادئ : يظهر أنك فاطر عن الفلسفة منذ الليلة . فلنواجه مشكلتنا من طريق غير طريق الفلسفة . ولأنبك قبل كل شىء بأنى إنما أرت وأرقتك معى هذه الليلة لأنى سأصبح بطلاً قبل أن ينتصف نهار الغد . وأنا لا أريد أن أنتظر البطولة نائماً ولا غافلاً ، وإنما أريد أن أنتظرها يقظان ، وأن آخذ لها أهبتها وأستعد لها كما يستعد الناس لعظام الأمور . وأنا أعلم أنك ضيق بى وبهذا الكلام الذى لا ينقضى والذى لا يفصح عن معناه ، ولكنى أقسم لك جاهدأ أنى لا أمزح ولا أهذى ولا أريد العبث ، وإنما أسوق إليك حديثاً كله

حق وصدق وصواب . فلن ينتصف نهار الغد حتى أكون قد بدأت بطولتي وأقدمت على عمل ذى بال . ولست أزعج أنى سأكون قد بدأت بطلاً من طراز الإسكندر أو قيصر ، ولكنى سأكون بطلاً على كل حال ، سأكون بطلاً لقصة من القصص لتكن تمثيلاً أو لتكن قصصاً مرسلًا ، ولكنى سأكتب الصفحة الأولى منها قبل أن ينتصف النهار غداً .

وكان يمضى فى حديثه هذا مستأنياً مستثنياً حتى أخذت أسأل نفسى أجنون هو : ولكنه أسرع فردنى إلى شىء من الاطمئنان . قال : أتعرف أن نظام الجامعة يقضى على أعضائها ألا يتزوجوا حتى يعودوا من أوربا ؟ قلت : نعم . قال : ألم يخطر لك أن هذه القاعدة قد تؤذبنى وتضطرني إلى بعض الحرج ؟ قلت : وما أنت وهذه القاعدة . قال : فأنت تجهل إذاً أننى زوج . وهنا ظهر على دهش صادق لأنى كنت أجهل أن لصاحبى زوجاً ، وما كان يخطر لى أن امرأة تستطيع أن تحتمل الحياة معه مهما يكن حظها من الصبر والحلم ومن العفو والقدرة على الاحتمال . وما كنت أستطيع أن أتصوره إلا رجلاً مضطرب الحياة ظاهر اضطراب التفكير ، ولكن قوة عقله وسعة علمه وذكاء قلبه هى التى تضطره إلى هذا الاضطراب ، وتظهره فى هذا الاختلاط . وكنت أرى أنه يقضى نهاره كما رأيته يقضيه يعمل فى ديوانه قليلا ويلغو مع الناس كثيراً . ويحيا حياة خفية قوية متصلة قيمة الإنتاج وينفق الليل بين القراءة والنوم .

فلما رأى ما ظهر على من الدهش والإنكار أغرق في الضحك . وقال :
لقد كنت تظننى طالباً مثلك أحيا حياة الطلاب ، ولكنك تعلم أنى
موظف وأن لى بيتاً كبيراً وأنى من أسرة غنية من أسر الريف . فكيف لم
يخطر لك أنى لم أكن أستطيع أن أستكمل ما ينبغي لمثلى من الحياة
إلا إذا اتخذت لى زوجاً . مهما يكن من شىء يا سيدى فأنا متزوج
وقد ظفرت بالنجاح فى امتحان الجامعة ولا بد من أن أمضى العقد
إذا كان النهار ، ومن أصول هذا العقد ألا أكون متزوجاً ، وألا أتزوج
حتى أعود . فأنا إذا مضطر إلى إحدى اثنتين . إما أن أكذب
على الجامعة وأتورط فى التزوير وأتعرض لما يقتضيه الكذب والتزوير
من الشر إن ظهر أمرهما . وإما أن أظلم امرأتى فأطلقها ، فماذا ترى ؟
وكيف المخرج من هذه المشكلة ؟ وأحب أن تعرف قبل كل شىء بأنها
مشكلة معضلة حقاً ، وبأنها خليقة أن تكافلك ما كافتك من الجهد ،
وتحملك ما حملتك من العناء ، وتورقك مع صديقك ليلة كاملة . قات :
فدعنا من الهزل ومن لغو الحديث واستقبل هذه المشكلة العنيفة بما
ينبغى لها من الحزم والعزم ومن الروية والأناة . قال : فإنى أنفقت
وقتاً غير قصير فى الروية والأناة ، وأنفقت جهداً غير يسير فى التماس
الحزم والعزم ، وقد كاد ينتهى ما أملك من الوقت ، وقد انتهى ما كنت
أملك من الجهد ، ومن أجل هذا دعوتك لأستعين بك على الخروج
من هذا المخرج الذى لا أدرى كيف يكون الخروج منه ، لأن من
اليسير أن أزعم للجامعة إذا كان الصباح أنى أعزب وأن أرسل امرأتى

إلى الربف لتقيم فيه حتى أعود إليها إن أتيت لي العودة . وما أظن أن هذا الكذب سيظهر ، وما أحسب أنه إن ظهر استتبع عواقب ذات خطر ، فإذا يعنى الجامعة من أمرى إن عرفت أنى متزوج وأنى قد كذبت عليها ما دمت لا أصطحب زوجى إلى حيث يجب أن أفرغ للدرس ، وما دمت سأجعل بينها وبينى هذه الآماد البعيدة فى البر والبحر . وقد يكون هذا الكذب مردولا ، وقد يكون منافياً لأخلاق الذين يريدون أن يحيوا حياة العلماء ، ولكنى لن أكذب رغبة فى الكذب ، ولا تعلقاً به ، ولا حرصاً عليه ، ولا إثارة لغش الجامعة وتضليلها ، وإنما أكذب إن كذبت رغبة فى العلم ، وتهالكاً عليه وحرصاً على أن أغير حياتى وأجعل لها معنى وقيمة وخطراً وأثراً فى منفعة الوطن . والكذب مردول إلا أن ينتهى إلى نفع وإلى نفع صحيح ، وأن يحقق مصلحة ومصلحة قيمة ، فإذا ترى ؟ أليس هذا الكذب خيراً من الظلم الذى أقدم عليه إن طلقت امرأتى مع أنها لم تأت ذنباً ولم تقترف إثماً ولم تدفعنى إلى هذه الرحلة بل كرهتها أشد الكره ، ولكنها لم تصرفنى عنها لأنها تؤمن بأنى لا أعزم إلا بعد تفكير صادق ، وانتهاء إلى رأى مصيب . وما أظنك تقترح على أن أصدق الجامعة وأظهرها على جليلة الأمر. فإنى إن فعلت لم يكن لهذا من أثر إلا أن تخيب آمالى كلها، وأن أستئثس من رحلتى ، وأطمئن إلى هذه الحياة الخاملة الذابلة التى لا نفع فيها ولا غناء . وأنا أعلم حق العلم أنى لا أملك هذه الشجاعة ولا أحتمل هذه الحياة ، وأنى إن صرفت

من هذه الرحلة بعد أن مدت لى أسبابها وهيئت لى وسائلها ميت من غير شك . ميت بالمعنى الصحيح الواضح لهذه الكلمة ، سأقتل نفسى إن ملكنى الغضب ، وسيفقتلنى الحزن واليأس إن أتيح لى الصبر والاحتيال ، فالغ هذا الفرض إلغاء وامحه محواً فليس لى بد من أن أكذب على الجامعة أو من أن أطلق امرأتى لأكون صادقاً ، فاختر لى وأشر على .

قلت وقد أنسيت كل ما كنت أجد من تعب وجهد ، وأنسيت الوقت وأنسيت المكان الذى أنا فيه ، وشافنى علاج هذه المشكلة حتى ملك على أمرى كله ، وحتى أحسست كلفاً بالأخذ والرد والحوار بما أحسسته قط فى درس من دروس العلم ، وقد لا يحسه شباب هذا الجيل الذى تعود الاستماع لمثل هذه المحاورات ، والاطلاع على مثل هذه المشكلات بعد أن اتسعت حياتنا وبعدت آفاقنا العقلية واشتد اتصالنا بالحضارة الغربية وقرأنا من أديها وفلسفتها الشيء الكثير . قلت : فىنى لا أرى لك الظلم بحال من الأحوال ولا أفهم أن تحمل امرأتك ذنباً لم تجنه ولا أن تحمل نفسك هذا الإثم الثقيل ، ومع ذلك فىنى لا أرضى لك الكذب ولا أعينك عليه ولا آمن عليك شره وآثاره السيئة . قال متضاحكاً : فأنت إذا ترضى لى أن أموت . قلت : بل أرضى لك أن تكون رجلاً وأن تؤمن بما تلح فى الدعوة إلى الإيمان به ، من أن ظروف الحياة أقوى من إرادة الإنسان ومن أن المثل القديم لم يعد الحق حين قال : « لا بد مما ليس منه بد » . ومن يدرى ، لعلك تستطيع أن تصور

للجامعة أمرك كما هو وأن تحملها على أن ترضى منك هذا الزواج الذى لن يكون له فى حياتك الدراسية أثر كما قلت آنفاً . قال : فإنك تعلم حق العلم أن الجامعة لن تغير نظامها من أجل ، وأنى لم أنجح وحدى فى الامتحان ، وأن من ورأى اثنين يودان لو تقطعت بى الأسباب عن هذه الرحلة ليفوز بها أحدهما من دونى . فأنا إن صدقت الجامعة ، مضح برحلتى من غير شك ، وإذا حيل بينى وبين هذه الرحلة فقد حيل بينى وبين الحياة واتصلت بى أسباب الموت فليس إلى هذا الصدق من سبيل . وأنت تخطئ إن ظننت أنه تحسن الشباب أو أنه التعجل والتقصير فى التفكير ، فأنا أعرف نظام الجامعة هذا قبل أن أقدم على الامتحان ، وأنا أفكر فيه منذ أعلنت الجامعة إلى هذه البعثة ، ومنذ ظهرت نتيجة الامتحان خاصة . فليس إلى هذا الصدق الذى تطلبه من سبيل . لن أعدل عن الرحلة ولن أبصّارح الجامعة بجلية الأمر . قلت : وإذا ؟ ففيم تستشيرنى وقد أجمعت أمرك ووطنت نفسك على الكذب ؟ قال : كلا يا سيدى ، لم أوطن نفسى على الكذب ، ولو قد وطنت نفسى عليه لأمعنت فيه ولأخفيت جليلة الأمر عليك ولا جتهدت فى إخفائها على نفسى ، ولكنى قد وطنت نفسى على الظلم ، فأنا أريد أن أكون صادقاً ، حين أتحدث إلى الجامعة ، إذا كان الصباح ، وأن أكون ظالماً لنفسى ولا مرأتى . قلت : فإنى أرى فى هذا إثمًا بشعاً واستباحة قبيحة للشر ، واعتداء على حق من لا تملك الاعتداء عليه . قال وهو يضحك حزيناً : وأنت مع هذا

أزهري تدرس الفقه وتعرف أن الطلاق مباح وأنه أبغض الحلال إلى الله ، ولكنه مع ذلك حلال لأخطيئة فيه ، ولا أثم على الذين يقدمون عليه . فأمر الزواج عندنا ليس إلى امرأتى بعد أن قبلته وهو ليس إليها وإلى ، إنما هو إلى وحدى ، فأنا أستطيع أن أمسكه إن شئت وأستطيع أن أحل عقده إن أردت ، وأنا أريد أن أحل هذه العقدة لا إثارة للطلاق ولا رغبة عن امرأتى ولكن إثارة لما هو خير من الزواج ولما هو خير من الزوج وإن كانت خليقة بالحب والمودة والعطف ، إثارة للعلم ورغبة في رقى النفس والعقل ، قلت : فإني أخشى أن يكون هذا كله غروراً ووحياً من وحى الأمانى ، وما أدرى أيهما خير : هذا العلم الذى تتحدث عنه كأنه شيء لا يدرك إلا إذا تكلفت له ما ستكلف من الشر ، أم هذه الزوج التى أصفتك ودها ومنحتك حبها ، ووقفت حياتها عليك ، وجعلها الله رحمة لك وسكناً . ومن يدرى ! لعل تحصيل هذا العلم الذى تهالك عليه وتستبيح في سبيله الظلم ، أن يكون ميسراً لك . وأنت مقيم في مصر بين أهلك لا تفارقهم ولا تتكلف لهم ظلماً ، ولن تكون أول من حصل العلم دون أن يرحل إليه ، والعلم يعبر إلينا البحر من أوروبا ، وهو يسعى إلينا في دورنا ، ونحن نستطيع أن نلتصقه فيما يلقى من الدروس وفيما يؤلف من الكتب . وإني لأخشى ألا يكون حب العلم الخالص هو الذى يغريك بهذه الرحلة التى لن أخرج من أن أراها آثمة ، وإنما يغريك بها سأم الأديب والحرص على تغيير الحياة ، والطموح إلى منصب الأستاذ ،

وهذا كله يغرى ، ولكنه يجب أن يكون أهون على الرجل الكريم من أن يدفعه إلى الظلم والإثم والعدوان . قال : يا سيدى إنك تضع وقتك ووقتي ، فلن تقنعني بالعدول عن الرحيل ، ولا بإظهار الجامعة على جليلة الأمر . وليس إلى اقتناعي بالكذب على الجامعة سبيل . أتدري لماذا أهون عليك ؟ فإنى أرى هذا الكذب مباحاً وما أكثر ما أبيع لنفسى أشياء تحرمونها أنتم على أنفسكم ، ويحرمها عليكم الدين وما تواضعتم عليه من الأخلاق . أنا لا أكره هذا الكذب لأنى أراه إثماً ، وإنما أكرهه لأنه سيدفعنى إلى آثام أمقتها حقاً ، وإلى ظلم أرى أن ظلم الطلاق أهون منه . إنى لأعرف من أمر أوروبا شيئاً كثيراً . وقد قرأت غير قليل مما ترسل إلينا من القصص ، وسمعت غير قليل من أنباء الذين يرحلون إليها ويقيمون فيها . وكل هذا ينشئ بأتى لن أقاوم الحياة الأوروبية وآثارها فى نفسى كما ينبغى للرجل الوفى لزوجته أن يقاومها . فأنا واثق يا سيدى بأتى سآثم وسأنغمس فى الخطايا وأنا أريد أن أحتمل وحدى هذا الإثم وأنغمس وحدى فى شر هذه الخطايا . وأنا أبيع لنفسى أن أكذب على الجامعة ، ولكنى لا أبيع لنفسى أن أكذب على امرأتى كذباً متصلاً ، فأزعم لها أنى وفى أمين ، على حين أنى قد غرقت فى الخيانة إلى أذنى . قلت وقد اقشعر جالدى واضطرب قلبى وأخذنى غضب عميق لا أكاد أجهر به ، ولا أكاد أخفيه : فهل تعلم أنك تقول منكرًا من القول ، وأنتك تقدم على أمر بشع شنيع ، وأن حبي لك يحملنى على أن أتمنى ما استطعت أن تصرف

عن رحلتك هذه صرفاً ، وأن تكره على الإقامة في مصر لإكراهاً . أنت تعلم أنك ستأثم في أوروبا ثم تقدم مع ذلك على السفر إليها ، وتشتد في هذا السفر . فأنت إذاً تريد الإثم وتعتمد الخطيئة وتنصر على المعصية ، ولكن كلمة المعصية هذه لم تكذب تبلغ أذنيه حتى جن جنونه ، واندفع في ضحك عريض ، عال متصل ، أخرجه عن طوره وكاد ينتهي به إلى الشر في جسمه وفي عقله أيضاً . وكان هو يضحك ويضطرب اضطراباً عنيفاً من شدة الضحك وأنا واجم ذاهل مبهور أسأل نفسي أول الأمر عن هذا الخبل الذي مسه . ثم تثوب إلى نفسي قليلاً قليلاً وإذا أنا أحس العمامة التي على رأسي وأحس الحبة والقفطان اللذين أسبغا على جسمي إسباغاً ، وأذكر أنني شيخ وأني أزهرى ، وأني تحدثت إلى صاحبي حديث رجل الدين ، وأن صاحبي يسخر مني ويهزأ بي ويردني إلى مكاني الأول ، ويرى أن أمله فيّ قد خاب وأن اختلافي إلى الجامعة واستماعي للأساتذة الأوربيين وتحدثي إليه واستماعي منه ، وما قرأنا من كتب أوربية ، وما كنت أتكلف من التجديد والخروج على الأزهر والأزهريين والتنكر له ولهم ، وما كنت أرى به من المروق وإيثار البدعة ، وما كنت أجد من اللذة حين أحس أن الناس يرون في المروق وحب البدع جديداً ، كل هذا لم يكن إلا غشاء رقيقاً وطلاء يسيراً لا يكاد يثبت للتجربة الأولى ، فإذا جد الجلد ، وكان أول درس من دروس الحياة العاملة التي ليست كلاماً ولا غروراً ، فأنا الشيخ الأزهرى القح الذي حفظ ما حفظ من كتب

الدين وورث ما ورث من آثار القرون ، واحتمل في قلبه الضئيل وعلى كتفيه الصغيرتين ، ثقل السنين التي توارثها الأجيال أثناء ثلاثة عشر قرناً .

أقول الحق أم أخفيه ؟ وما لي لا أصطنع الشجاعة ولا أحمل نفسي على بعض ما تكره ، وإن الحياة لتحملها على ما تكره في أكثر الأحيان . لقد استحييت من صاحبي ، واستحييت حتى انتهيت إلى الخزي ، وأحسست كأن رأسي ذاب في عمامتي ، وكأن هذه العمامة لم تكن تستقر على شيء . وأخذت أتضاعل في جبتي وقفطاني . حتى خيل لي أنهما يستقران على هذا الكرسي لا يملؤهما شيء . وأخذت قطرات من العرق تسيل على جبتي فتبلها . وكادت الرعشة أن تجري . في جسمي المتضائل المضطرب . كل هذا لأن صاحبي ظهر على جليلة أمرى . وعرف أنني ما زلت أزهرى النفس والقلب والعقل . أرى الانقماش في الحياة الأوروبية إثمًا وأشفق على صاحبي منه ، وأرى الإصرار على الخطيئة وتعمد الإقدام عليها كفرًا ، وأخاف على صاحبي عواقبه . وإذا فأى فرق بيني وبين هذا الشيخ العتيق الذي كان يعرض بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيتغنى في بعض دروسه بهذه الجملة التي شاعت والتي كنا نتندر بها ، ونضحك منها . وكنت أنا أشد الناس تندرًا بها وضحكًا منها ، « ومن ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق » .

كذلك قال الشيخ ، وبذلك كنا نتندر في الأزهر ، ومن ذلك كنا

نضحك في أُنديتنا الحرة التي كان الأزهريون يرونها أُندية ابتداع وضلال .
فقد أصبحت أنا كهذا الشيخ أرى أن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر
أو على الأقل زنديق . ومع ذلك فإن أَساتذتي من الفرنجة في الجامعة
يرون أني حر الرأي ويشفقون عليّ من حرية الرأي هذه ، وكنت
أنا أرى أني حر الرأي وأُغتبط بما يصيبني في سبيل هذه الحرية .
فقد كنت إذاً أكذب على نفسي ، وكنت إذاً أُخدع أَساتذتي ،
ولم أكن إلا شيخاً أزهرياً قحاً يرى أن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر
أو على الأقل زنديق .

كذلك كنت أفكر مستخزياً متضائلاً من الخزي بينا كان صاحبي
يغرق في الضحك ، حتى إذا أعياه اضطراب جسمه هدأ بعض
الوقت يتكلف الهدوء ، ثم لا يلبث أن يعود إليه الضحك العنيف
فيهزه هزاً عنيفاً وهو يردد كلمة المعصية هذه ويقول ما زلت تؤمن
بالطاعة والمعصية وتردد هاتين الكلمتين ، وما زلت تفكر في الكفر
والإيمان .

ثم يمضي في الضحك وأمضي أنا في الحجل والاستخزاء . ومع
ذلك فلو أني كنت أتحدث إلى رجل هادئ عادي غير غريب
الأطوار ، لما أنكرت من حديثي شيئاً ولما رأيت على نفسي منه بأساً ،
فلم أكن أرى الذهاب إلى فرنسا كفراً ولا زندقة وإنما كانت طبيعتي كلها
تنور لهذه الجرأة الوقحة ، التي كان يقدم عليها صاحبي في غير تكلف ،
وهو يتحدث عن الخطايا والآثام وانغماسه فيها وتبنيه للانغماس فيها .

ولقد منضت أعوام وأعوام وذهبت إلى أوروبا مرات ومرات وأقمت فيها . فأطلت الإقامة ، وما زلت اليوم كما كنت في تلك الليلة تثور طبيعتي كلها إذا سمعت من يتحدث في هذه الجراءة الوقحة عن الخطايا والآثام والتهيو للانغماس فيها . ولا بد من أن أمضي في قول الحق إلى أقصاه ، فقد وادعت صاحبي وصانعته واجتهدت في أن أقنعه بأنى لست شيخاً أزهرياً قحاً ، لم أحب إليه فراق امرأته ولم أعنه على التهيو للانغماس في الخطايا والآثام . ولكني فقدت القدرة على مقاومته . وعجزت عن محاولة إقناعه بما كنت أرى ، لا لأنى ملت إلى رأيه ، بل لأنى كرهت أن يرانى شيخاً أزهرياً قحاً يؤمن بأن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق .

وكذلك يسيطر الغرور على أنفس الشباب فإذا هم يتكلفون ما لا يحسنون ويحملون أنفسهم ما لا يطيقون ، ويتكلفون هذا النفاق الغريب يخفون به ما في نفوسهم من أصول الخير ويظهرون به ما يرغبون فيه من مظاهر التجديد .

ثم يرتفع الضحى وإذا صاحبي يردنى إلى بيتي ويفارقني ليذهب إلى الجامعة ويقول في لهجة ساخرة لاذعة : سألتاك مع المساء ، فلا بد من أن نستأنف حديث الطاعة والمعصية ، فإذا لقينى في آخر النهار علمت منه أن الجامعة قد احتجزت له مكانه على إحدى السفن ، وأنه مرتحل بعد أسبوع وأن زوجه قد ارتحلت ظهر اليوم إلى الريف وأن طلاقها سيبلغها إذا كان الغد .

» يونيو في سنة . . .

بينك وبينى أيها الصديق العزيز فتور أحسسته أمس حين التقينا في قهوتكم هذه التي تزدحم بالشيخ، ويشند فيها لفظهم بالفقه والنحو والأدب، وتختلط أصواتهم بهذه الضوضاء العنيفة التي تصدر عن الناس وعن الترام وعن هذه العربات التي تخرج مع النساء من درب الحماميز إلى شارع محمد علي، لتنبث في أحياء القاهرة موزعة عليه ما يحتاج أهلها من اللحم. وقد كان هذا الضجيج المختلط خليقاً أن يحول بينى وبين الشعور بهذا الفتور، حتى يطول الحديث بيننا، ولكنى لم أكد أصافحك حتى أحسست الفتور في يدك، وتأكدت أنه صورة للفتور في نفسك، فلما تحدثنا فصل لى صوتك الهادئ ما أجملت يدك، واستيقنت أن بينك وبينى شيئاً.

ولولا أصحابك من الشيوخ هؤلاء الذين أحب أن أراهم من بعد، وأكره أن أجلس إليهم، وأن يتصل بينى وبينهم الحديث، لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء، وما كانوا يشغلوننا به من أحاديثهم عن الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم، وما كانوا يشغلوننا به من تهالكهم على أصحاب الطعام حين كانوا يمرون بما يحملون من الفطير والشواء وما يشبهها من هذه الأطعمة الرخيصة، لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء لما اتصل

الحديث بينك وبينى أمس إلا فى هذا الفتور الذى تبينته فى يلك وفى صوتك ، وفى وجهك . ولما انصرفت عنك إلا وقد رددت الأمر إلى ما كان عليه ، من هذا الصفاء القوى الذى لا تكلف فيه ، ولا احتياط . ولكنى جعلت أنهنز الفرص لأخلو بك ولتفرغ لى فلا تسبح ، ولم يكن من اليسير أن أطلب إليك النهوض معى لبعض الشئون كما تعودنا أن نفعل ، فقد كنت على ثقة بأنك ستعتذر ، وستعجل بأنك متعب مكود من ليلتك البيضاء ، التى قضيتها معى أمس .

على أنى لم ألبث أن تبين أنى لم أكن مخطئاً فيما كنت أقدر حين رأيتك تتعجل العودة إلى بيتك ولا تحفل بالخاصة عليك والخاصة أصحابك فى أن تبقى معنا كما تعودت أن تبقى حتى يتقدم الليل ، وتقل الضوضاء فى الشارع ، ويطيب الحديث فى هذه القهوة الجميلة .

ولقد هممت أن أنهض لأرافقك إلى بيتك ، وكنت أظن أن فى مرافقتك هذه الدقائق ما يتيح لى أن أدير الحديث بيننا حتى أبلغ هذا الفتور ، وكنت واثقاً بأنى إن بلغته فلن أدعه حتى أمحوه محواً ، وإن أرقتك ليلة أخرى . ولكن الله لم يرد ذلك ، أولم يرد أصحابك الشيوخ ، فقد نهض صاحبك هذان اللذان طالما نغصنا على مجلسى معك فراقك ، واضطرت أنا إلى التخلف ، والله يعلم إلى أين ذهبتم ، فليست أشك فى أنهما لم ينصرفا عنك حين انتهيت إلى بيتك ، وأكاد أعتقد أنك إنما تكلفت الانصراف وتعجلت العودة لتخلص منى ومن كان من أصحابك ، ولتفرغ لصديقك هذين فتقضى معهما شطراً من

الليل غير قليل ، فيما تعودتم أن تنفقوا ليلكم فيه من عبث وحديث .
 ولولا أنى كرهت أن أثقل عليك وعليهما وأن أوصف بالإلحاح ،
 لتبعتم لأعلم علمكم ، ولأسقط عليكم بعد أن يستقر بكم المجلس ،
 ولأتخذ موضوعاً للصراع بينهما وبينى ، فلا أنصرف عنك ، حتى
 أصرفهما ، وما أوسع حيلتى حين أريد أن أصرفهما عنك ، وأى شيء
 أيسر من أن آخذ معك فى بعض الحديث الذى لا يجبانه ، ولا يسيغانه ،
 ولا يفهمانه ، فإذا أنت تجيب وإذا أنا أمضى فى الحديث ، وإذا
 هما يظهران الضجر ، ثم يظهران الضجر الشديد ، ثم يتشاءبان ، ثم
 يؤذنان بعزمهما على الانصراف ثم ينصرفان ، ولكنى لم أنشط لشيء
 من هذا لأنى لم أجد منك ما يعيننى على النشاط إليه ، ولأنى لم أجد من نفسى
 ما يدفعنى إلى هذا النشاط . فقد كنت أنت فاتراً ، وكنت أنا مثقل النفس
 بالهم ، مملوء القلب بالحزن ، والله يعلم ما احتجت إليك فى يوم أو ليل كما
 احتجت إليك أمس ، وما افتقدتك فى يوم أو ليل كما افتقدتك مساء أمس .
 لقد رأيتم تنهضون ، وأتبعتم بصرى وأنتم تسعون إلى درب الجماميز .
 حتى إذا انعطفت بكم الطريق ، أثبت بصرى فى الفضاء أمامه كأنما
 كنت أريد أن ينعطف معكم وأن يبلغكم وأن يدعوكم إلى وأن يردكم
 على ، ولكن بصرى لبث ثابتاً فى الفضاء ، لم يستطع أن يتبعكم ولا أن
 يبلغكم ولا أن يؤدى إلى أنفسكم ولا إلى نفسك أنت خاصة رسالة
 نفسى ، فرددته إلى خائباً محزوناً ، ومكثت فى قهوتكم هذه أنظر
 ولا أكاد أرى ، وألقى السمع ولا أكاد أسمع ، ويتحدث إلى من حولى

فأجيب حيناً ، وأذهل أحياناً عن الجواب . وقد تفرق الناس من حولي
كما تعودوا أن يتفرقوا حين كاد الليل أن ينتصف . وخلت القهوة لي
ولجماعات ضئيلة تفرقت فيها حول بعض اللعب ، فأنفقت فيها ما استطعت
أن أنفقه من الوقت ، وأستطيع أن أنبئك صادقاً بأنني دهشت حين
سمعت الخادم ينبهني إلى أن قد آن أوان الإغلاق ، فنهضت كارهاً
مثاقلاً ، وأخذت الطريق التي أخذتموها ، في درب الجماميز ، أسعى
أمامي وكأنني كنت أقدر أنني سألقاك عائداً إلى بيتك مع أحد صاحبيك ،
فأخذك منه قهراً أو أنفق معك بقية الليل ، هائمين في القاهرة ، أو لاجئين
إلى داري أو إلى هذا السطح الجميل الهادئ الذي ينسبط أمام بيتكم
الصغير . وكنت كالمستيقن بأنكم إنما ذهبتُم عند أحدكم في هذا البيت
الذي يسكنه غير بعيد من بيتي ، عند جامع ابن طولون ، فسرتم
ما شاء الله أن تسمرُوا وهزأتم بشيوخكم في الأزهر ما شاء الله أن تهزعُوا ،
وذكرتم من أنباء صاحبكم (. . .) ما شاء الله أن تذكرُوا ، وتناشدتم
الشعر وهجا بعضكم بعضاً ، وأثنى بعضكم على بعض ، ثم آن لكم
أن تتفرقوا فبقى أحدكم في بيته وخرجت أنت مع صاحبك تسعيان في
هدوء الليل الساكن وتمضيان فيما كنتم فيه من لغو ، وتضحكان من
هؤلاء السكارى الذين يتخبطون في هذه الأحياء الوطنية حين يعودون
إلى بيوتهم آخر الليل ، حتى إذا بلغنا بيتك آويت بإليه ، ومضى
صاحبك وحيداً ، يسرع في هدوء الليل كأنه السهم ، حتى يبلغ
داره في أقصى الظاهر .

كنت أقدر هذا كله وأكاد أثق به ، وأكاد لا أشك في أني سألقاك مع صاحبك في بعض الطريق ، والله يعلم ما سمعت وقع أقدام من بعد ، إلا خيل إلى أنها أقدامكما ، ولكنني قطعت درب الجمايز حتى انتهيت إلى السيدة دون أن ألقاكما ، ثم مضيت نحو جامع ابن طولون ، فلم ألقكما ، ثم انعطفت حتى مررت ببيت صاحبك ، فلم ألقكما ، ولم أر في البيت ما يدل على يقظة ، ولم أسمع منه ما ينبئ باتصال السمر والحديث .

فضيت في طريقى يائساً من لقاءك محزوناً لهذا الفتور الذي لم أستطع أن أحوه حتى انتهيت إلى بيتي ، وليتني لم أنه إليه ، لقد كنت ذاهلاً حين بلغت البيت فدققت الباب كما تعودت أن أفعل وانتظرت ، ثم دققته مرة أخرى ومرة ثالثة ، وكان الصوت يتردد في هذه الدار ثم يعود إلى فينبئني بشيء لا أكاد أفهمه ، حتى إذا كانت الطرقة الثالثة عاد الصوت إلى فينبئني بما فهمته وارتعت له ، عاد الصوت إلى يقول لي إنك لأحق ، فم تترك الباب وليس من ورائه من يسمع لك ، ولا من يسرع إليك ؟ لقد تحمل من كان في البيت وأصبح البيت خالياً فارغاً هادئاً ينتظر مقدمك لتلاؤه وتعمره وتذيع فيه الحركة ، لا تعد طرق الباب ، فلن يستجيب لك أحد ، ولكن أخرج المفتاح وأدره في القفل أمامك ، فإذا انفتح الباب لك ، فادخل وأغلقه من دونك أو لا تغلقه ، فن يدرى ! لعلك لا تستطيع مصاحبة لهذه الوحدة المروعة في هذا البيت الذي لم يتعود الفراغ . لن تهديك الخادم الصغيرة بمصباحها

الضئيل كما تعودت أن تفعل . فأنت تعلم أنها سافرت مع سيدتها ، فأخرج من جيبك علبة الثقاب وأضئ لنفسك ظلمة الطريق واذهب إلى أى الوجهين شئت ، اذهب إلى غرفتك الحرام ، فلا بأس عليك من الإلتجاء إليها ، لن يبلغك فيها صوت ، ولن تنتهى إليك فيها حركة . ولن تتحدث فيها إلى صديقك ، ولن تلقى فيها إلا كتبك التى لا تحصى . ومن يدرى ! لعل نفوس المؤلفين لهذه الكتب قد أقبلت جماعات من أعماق الزمان ومن أقطار الأرض ، لتؤنس وحشتك فى هذه الغرفة الخالية . واذهب إن شئت إلى غرفة نومك فلن ترى فى السلم سراجاً مضئاً ولن ترى إذا انتهيت إلى أعلى السلم خادمته الصغيرة مستلقية تغالب النوم وتنتظر مقدمك . ولن ترى فى غرفتك امرأتك فى سريرها تتكلف النوم وهى مستيقظة ، ولكنها لا تريد أن تؤذيك ، ولا أن تشق عليك ولا أن تلقى فى روعك أنها تأرق حتى تعود إلى غرفتك . فالله يعلم أنها لا تأرق إلا انتظاراً لك ، وشوقاً إليك ، ولكنك خليك أن تسيء الظن وأن تقدر أنها إنما تأرق لتحصى عليك الساعات . تستطيع الآن أن تدخل هذه الغرفة لا مترفعاً ولا محتاطاً فلن توظأ أحداً ، ولن يحس مقدمك أحد ، ومن يدرى ! لعل ظلاً من امرأتك قد أقام فى هذه الغرفة ينتظر مقدمك ويأبى أن يفارق هذا البيت حتى تفارقه أنت لتعبر البحر .

نعم عاد إلى صوت الطريقة الثالثة بهذا الحديث الطويل ، فى لحظات لا أدرى أكن طوالاً أم قصاراً ، ولكن الذى أعلمه هو أنى لم أخرج

المفتاح ولم أدره في القفل أماى ، ولم يفتح لى الباب ، وإنما لبثت قائماً أمام البيت بعد أن تردد هذا الحديث في أعماق نفسى ، فلأها حزناً ووحشة ورعباً ، وأكاد أكتب وندماً ، ولكنى لا أريد أن أعترف بأنى أحسست الندم .

لبثت قائماً أمام البيت أسأل نفسى أقدم أم أحجم ؟ أأدخل الدار أم أنصرف عنها . ثم لا أخفى عليك لقد عمجت عن الإقدام وكرهت أن أفتح الباب ، ولم أجس شوقاً إلى لقاء الظلال ، ظلال العلماء والأدباء والفلاسفة ، قد أقبلوا يؤنسون وحشتى في الغرفة الحرام . ولم أجد جلدأ على أن ألقى ظلي امرأتى في غرفة نومى ، وإنما استحيت منه أشد الاستحياء ، لم أدخل الدار وإنما انصرفت راجعاً أدراجى ، ومضيت أھيم في الطريق أماى ، أخرج من شارع لأدفع إلى شارع آخر ، لا أحفل بما قد يظنه بي هؤلاء الخفراء والشرطيون الذين لا أشك في أنهم كانوا ينكرون شخصى الهائم ، في مثل هذه الساعات المتأخرة من الليل ، ولعل منهم من هم أن يسألنى عن أمرى ، ولكنه لم يجد على من مظاهر الريبة ما يغريه بهذا السؤال ، فعلى بى وبين الطريق .

وما زلت أھيم وأھيم في غير وجه حتى أحسست يقظة الناس من حولى ، وسمعت أصوات المؤذنين تتجاوب بالدعاء إلى الله ، فثابت إلى نفسى بعض الشيء مع ضوء النهار ، وتكلفت في مشى ومظهرى ما يصرف عنى كل ريبة أو شك ومضيت في هيامى ، ساعة وبعض

ساعة ، ثم أنظر فإذا أنا عند قهوتكم هذه التى التى فيها مساء أمس .
من أين جئت ، وكيف انتهيت إليها ، لا أدري ، ولكنى قد بلغت
وبلغت متعباً مكثراً ، وما كدت أرى هذه الكراسى ينسجها الخادم
فى شئ من الكسل والفتور حتى أحسست كأن هذه الكراسى تدعونى
إلى الراحة . وحتى رأيتنى أستجيب لدعائها : وأسرع إلى الجلوس ،
وأطلب إلى الخادم أن يحمل إلى الشاى . ومن قهوتكم هذه أكتب
إليك الآن أيها الصديق . وكنت أريد أن أتحدث إليك عن هذا
الفتور الذى أحسسته منك أمس لأخبره ولأنهم معك الحديث الذى
كنا فيه والذى قطعتة أنا بهذا الضحك المفاجئ السخيف الذى دفعت
إليه دفعاً والذى أفسد الأمر بينك وبينى . ولكنى لم أحدثك إلى الآن
إلا عن نفسى وعن ليلتى البيضاء الثانية التى قضيتها فى غير راحة ولا أمن
ولا هدوء . على حين لموت أنت مع صاحبيك ثم استمتعت بالراحة
والنوم ، وما أنت ذا الآن تستقبل النهار نشيطاً مستريحاً مبتسماً للحياة ،
تريد أن تمضى فيما تعودت أن تمضى فيه من القراءة أو الدرس ،
أو تريد أن تخرج للقاء صاحبيك أحدهما أو كليهما ، أو تريد أن
تتظرهما فلعلهما أن يزورك ليخرجاك أو ليقيا معك . أأنت ترى أنك
أثمر مسرف فى الأثرة وأنت تترك صديقك يحتل وحده أُنْقال الشقاء ؟
أأنت ترى أن من حق صديقك عليك أن تسرع إليه فتسمع منه ،
وتقول له : وتسليه وتواسيه ، فإنه سيشتى وحده دهرًا طويلًا حين
يعبر البحر إلى تلك البلاد التى ليس له فيها صديق ؟

سأرسل إليك هذا الكتاب مع خادِم القهوة وسأنتظر بعد إرساله ساعة فن يدرى لعل أن أراك مقبلاً مع غلامك الأسود الصغير
دخل على بهذا الكتاب غلامى الأسود الصغير هذا وأنا أتياً للخروج، وكنت كما قدر صاحبي على موعد من صديقي لنذهب إلى دار الكتب . ولكن الغلام لم يكده يفرغ من قراءة هذا الكتاب على في لهجته الأسوانية التي كانت تضحكنى عادة لأنها تجعل القاف غيناً والغين قافاً والتي لم تضحكنى اليوم وإنما آذنتى وملأت صدري حرجاً . لم يكده يفرغ من قراءة هذا الكتاب حتى خرجت معه ولكن لا إلى قهوة دار الكتب حيث كان ينتظرني صديقاي ، بل إلى قهوة الزاوية حيث كان ينتظرني صاحبي هذا الشقي .

١٠

ألم أقل لك أول أمس إنى سأصبح بطلاً قبل أن ينتصف النهار من غد ؟ فإنى قد صرت بطلاً منذ أمس وما أظنك تمارى فى ذلك بعد أن قرأت الكتاب الذى أرسلته إليك منذ حين . قال ذلك وضرب المائدة أمامه بعصاه ضرباً خفيفاً ، فلما أقبل الخادم طلب إليه إبريقاً من الشاي ، ثم استأنف حديثه متعباً مكثوداً وفى صوته شيء غير قليل من التكسر والفتور . قال : نعم لقد صرت بطلاً منذ أمس ، بطلاً لقصة قد تكون كلها جدياً وقد تكون كلها هزلاً وقد تكون مزاجاً

من هذا وذاك ولكنها قصة لا بد لها من بطل على كل حال ، وقد أردت
أو أرادت الظروف أو أراد القضاء الخفى أن أكون هذا البطل . فليس
من الأشياء الهينة أن يقدم الرجل على طلاق امرأة يحبها ويؤثرها ويعرف
لها جيلاً لا يستطيع أن يقدره ولا أن يكافئها عليه . ليس هذا من الأشياء
الهينة ولا سيما حين تكون هذه المرأة كريمة النفس رضية الخلق طاهرة
القلب نقية الضمير لا يأخذها زوجها بخيانة ولا يتعلق عليها بسيئة
ولا يلتق منها إلا ما يسره ويبره ويرضيه ، ومع ذلك فقد أقدمت على
هذا الشيء الخطير إثارةً للعلم وإن شئت فقل إثارةً للرق وارتفاع
المنزلة ، وإن شئت فقل اجتناباً للكذب على الجامعة وفراراً من الحياة
الممكنة ، بل الراجحة ، بل المحققة . وأنا أعلم أنك قد أنكرت على
هذا وأنت كنت تجادلنى فيه ، ولكن تلك الضحكة التى لقيتك بها
حين انتهيت إلى بعض الحديث قد قطعت علىّ وعليك هذا الجدل
وكادت تفسد ما بينك وبينى من الأمر .

فالآن وقد قرأت كتابى وعرفت من أمرى ما عرفت وزال من
نفسك هذا النفور الذى كنت أحسه أمس فقد نستطيع أن نعود إلى
هذا الحديث لتعلم أنى لم أكن مخطئاً فيما كنت أعترم وأنى لست مخطئاً
فما تمت عليه من فراق امرأتى قبل أن أرحل إلى أوروبا . وأقبل الخادم
يحمل الشاى فلاً منه قلحاً لى وقدحاً له وهو يقول هذا خامس أقداح
الشاى التى شربتها منذ بلغت هذا المكان فى أول النهار .
ثم عاد إلى حديثه من حيث انقطع حين كنا نتحاور فى داره ،

فقال : لقد كنت تلومنى على أنى أقدر الإثم وأفكر فيه وأعلم منذ الآن أنى سأقترفه وأتبعها بفراق امرأتى لاقترافه ، وكنت ترى الإصرار على هذا كله خطيئة بل كفراً وخروجاً من الدين ، وكان حديث الكفر يدهشنى لأنى لم أكن أنتظره منك بعد أن عرفتك حر الرأى غالباً فى التجديد . فلا تغضب إن أظهرت هذا الدهش ، وعد بنا إلى خلاصة الحديث فأيهما خير ؟ أن يعرف الإنسان مكانه من القوة والضعف ونصيبه من القدرة والعجز ، وأن يحتاط لما يعرف من ذلك فلا يقترب من الآثام ولا يجترح من السيئات إلا ما لا يجد منه بدءاً ولا عنه منصرفاً . أم أن يخدع الإنسان نفسه ويغره بها الغرور فيضيف إليها الخير وليست بخيرة ويثبت لها الفضيلة وليست بفاضلة ويحملها ما تطيق وما لا تطيق ، ويقترف من الآثام ما يستطيع أن يجتنبه ويتق التورط فيه . وما رأيك فى أنى أعرف من نفسى مواطن الضعف وأقدر أن الحياة الجديدة فى ذلك الذى أنا راحل إليه ستمحو منها هذا المقدار اليسير الذى بقى لها من رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والحرص على ما تواضع الناس على أنه الخير ، وستغمرنى أمواجهم الزاخرة المصطخبة فلا أقوى على دفعها ولا مقاومتها وإنما أعيش كما يعيش الناس وآتى من الخير القليل والشر الكثير ما يأتون . أفإن صارحت نفسى بالحق وأخذتها بأن تحتل وحدها أوزار أعمالها كنت خاطئاً ممعناً فى الخطيئة وكافراً مسرفاً فى الكفر . فإذا ضللت نفسى تضليلاً وغررتها تغريراً وزينت لها وللناس أنى سأكون فى فرنسا خيراً مما أنا فى

مصر تقيّاً نقيّاً وبرّاً طاهر القلب ، وأنا أعلم أن ذلك لن يكون مهما أحاوله وأعلم قبل ذلك أنى لن أحاوله لأنى لن أستطيع التفكير فى محاولته ، أفإن عمدت إلى هذا التضييل والتغريب برئت من الخطيئة ونجوت من إثم الكفر والمروق . أأأست ترى فى هذا النحو من التفكير والفهم والحكم عوجاً والتواء ؟ قلت : لا أدرى ولكنى أؤثر الرجل أن يقع فى الخطيئة إن لم يكن له بد من الوقوع فيها على غير علم بذلك ولا تهيب ولا تفكير فيه ، وأرى فى هذا الاستعداد للإثم بدءاً فى اقترافه وفى هذا التهيب للإساءة شروعاً فى الإساءة وفى هذا التفكير فى الشر قبل أن يقع مع أن من الممكن ألا يقع استعداداً رديئاً للشر وإلحاحاً آمناً فى دعائه ، وقد كان يحسن ألا تدعوه . والأمر لا يقف فى رأى عند الدين ولا عند الكفر والإيمان ولا عند رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والأخلاق ، وإنما هو يتجاوز هذا كله إلى شىء لا أدرى كيف أصفه ، ولكن صورته تقع من نفسى موقعاً سيئاً . فقد يخيل إلى أن الإنسان المتحضر المثقف خليف ألا يتجرد ولا يعرى حتى أمام نفسه إن وجد إلى ذلك سبيلاً . وقد يخيل إلى أن حياء الرجل المثقف من نفسه هو خير أنواع الحياء وأرقى منازلها . وقد يخيل إلى أن فى مواجهتك لهذا الشر الذى لم تعرفه ولم تدفع إليه بعد وفى تأهبك له ، شيئاً من الخروج عن هذا الحياء الذى لا ينبغى للرجل المتحضر المثقف أن يبرأ منه .

قال : فأأأأ تريد أن تقول لى وقح أمام نفسى ، فليس غريباً

أن أكون وقحاً أمام الناس ! قلت في شيء من التحفظ : هو ذاك ،
 بل إن في الأمر ما هو أغرب من هذا ، فإنك لا تظهر وقحاً أمام
 الناس ، وما أعرف أن أحداً أساء الظن بك أو شك في سيرتك أو
 رماك بالخلاعة أو اتهمك بالمجون . فأنت إذاً تظهر للناس غير ماتضمر ،
 وأنت إذاً تكاشف الناس بما لا تكاشف به نفسك ، وأنت إذاً خليع
 ماجن ، ولكنك تظهر للناس أنك صاحب جد واحتشام . قال وقد
 عاد إليه نشاطه واستأنف ضحكته العريض : فأني يا سيدي خليع
 ماجن ، ما أرى في ذلك عيباً وما أشك في أني عظيم الحظ منه . وإذا
 أخفيت ذلك على الناس فما أخفيه إلا اتقاء لشر الناس وإيثاراً لمنفعتي
 ليس غير . فقل إنى وقع في السر ، وقل إنى رجل لا حظ له من حياء ،
 فأنت إن قلت ذلك لم تعد الحق ولم تؤذني ؛ لأنك لست كغيرك من
 الناس ، ولأنك لا تملك أو لا تستطيع أن تؤذيني وأن تفوت على حظي
 من الخلاعة والمجون . وأنا على هذا كله أرى أني أقرب إلى الخير من
 قوم لا يظهرون خلاعة ولا مجوناً ، ولا يكشفون للناس ولا لأنفسهم
 عما يظنون من سرائر بغیضة ونيات آثمة خبيثة . فأنا أريد أن أحتمل
 وحدي وزر خلاعتي وثقل مجوني ، وأنا أعلم أن حساب ذلك بيني
 وبين ضميري أو بيني وبين الله . ولكني لا أحب أن أمسك امرأتی
 فأحملها ثقل ما أقترف من الآثام والسيئات ، وأخونها وأنا أزعج لها أني
 وفي . إنى لا أعلم أني ما خنتها منذ اتخذتها زوجاً على كثرة ما نازعتني
 نفسي إلى الخيانة ، ومن يدرى ! لعل حظي من الحياء أمام نفسي

أكثر مما تظن . ومن يدري ! لعل حظي من هذه الأخلاق الأخرى التي تعصم الرجل من الخلاعة والحجون أكثر مما تظن أيضاً . وإنى لأقيس نفسي إلى صاحبك هذا الشيخ ما كاد يظفر بالإجازة التي تجعله من علماء الدين وتضمن له أجراً يوسع عليه في الحياة ويمكنه من الترفيه على نفسه ، حتى أقدم على ما تعلم وما لا تعلم من الآثام والخطايا والحصال التي لا تلائم علماً ولا ديناً ولا خلقاً ، فهو يغرق في الحجون والإثم إلى أذنيه حين تمكنه الفرصة ، فإن لم تواته دعاها واتخذ إليها الوسائل والأسباب . وهو في الوقت نفسه يخطب فتاة كريمة من أسرة كريمة ويظهر لهذه الفتاة البريئة وأسرتها أنه أظهر الناس سيرة وأعفهم لساناً وقلباً ويداً . وهو في الوقت نفسه يتكلف الوقار والاحتشام ويظهر الإيمان والنسك ، ولا يكاد المؤذن يتم أذانه حتى يكون في المسجد قد سبق إلى الصف الأول ، ولا تراه في مجلس من المجالس العامة ولا في ناد من الأندية إلا وفي يده سبحة يعبث بها ، أو كتاب من كتب العلم أو الدين ينظر فيه أو ينصرف من النظر فيه وكأنه قد أكره على هذا الانصراف إكراهاً . أنا يا سيدى خير من هذا الشيخ في نفسي ، وخير منه في نفسك ، وخير منه عند الله .

قلت ضاحكاً : أما أنك خير من هذا الشيخ في نفسك وفي نفسي فهذا شيء ليس فيه شك . وأما أنك خير منه عند الله فالله وحده يعلم هذا . وما أرى إلا أن كليكما شر من صاحبه ، وما أرى أن الوقاحة في الإثم خير من النفاق ، ولا أن النفاق في الإثم خير من الوقاحة ،

إنما أمركما كحمارى العبيدأدى قبل له أيهما شر؟ فقال : هذا ثم هذا .
 قال : وقد أرسل من فقه ضحكة ملأت القهوة ، وما أشك فى أنها
 لغت إلينا من كان فيها من الناس : ليس هذان الحماران سواء يا سيدى ،
 بل إن بينهما شيئاً من الاختلاف . فأما أحدهما فقد يتفق النهار
 لا يذوق طعاماً وقد يارق الليل لا يذوق نوماً ، حتى إذا استقبل الصبح
 وأدركه الضعف وأضناه الأرق والتفكير استعان على الضعف والضعف
 بأكواب من الشاى يحسوها هادئاً رقيقاً ، ثم يخوض معك فى أحاديث
 العلم والدين ، ويجادل فى الأخلاق وفلسفة الأخلاق ؛ فهو حمار
 مثقف متحضر ، إن جاز للحمير أن تأخذ بحظ من ثقافة أو حضارة .
 وأما الآخر فهو الحمار الذى ذكره القرآن ، يحمل الأسفار ويشقى
 بنقلها ولا يعي ولا يفقه مما فيها شيئاً . لو قد رأيته منذ حين فى هذا
 المكان الذى لم يبرحه بعدُ لوليت منه فراراً وللت منه رعباً ، إذأ لرأيت
 حيواناً قد أقبل على طعامه من الفول والبصل كما يقبل الحمار على طعامه
 من الياوس والأخضر ، وهو يلتهم الفول التهاماً ، ويقضم البصل قضمًا ،
 وبين يديه هذا الغلام الذى لا يزال معه إلى الآن يأكل متحفظاً
 مستخدماً من نفسه ومن مكانه بين يدى هذا الشيخ أمام الناس .
 ثم يفرغان من الاتهام والقضم ، ومن الازدراء والتجهم ، ويحمل إليهما
 الشاى فإذا الغلام يتناوله فى أناة ومهل ، وإذا شيخك الحمار أو حمارك
 الشيخ لا يكاد يملأ القدح حتى يلقيه فى جوفه لإلقاء كما يصب الماء
 من النوافذ على الأرض صبيّاً . وأقسم لقد رأيته منذ حين يقبل على هذه

القهوة ضعيفاً مكبوحاً ويسعى إلى مجلسه منها بطيئاً متهاكاً ، ثم يلتقي نفسه على كرسيه إلقاء ، كأنه عاجز عن أن يمسك جسمه على ما ينبغي له من اعتدال القامة ، فخر على كرسيه كما ينقض البناء . أقسم لقد رأيته يقبل ثم يسعى ثم ينهار على هذه الحال ، فما شككت في أنه أنفق ليله أو أكثر ليله في غير النوم وفي غير ما يأرق له النساء والصالحون ، وفي غير ما يسهر له العلماء والمفكرون ، وفي غير ما أنفقت فيه ليلي من ألم وندم ومن هيام واضطراب في الأرض . ثم لم يكد يستقر ويستقر غلامه هذا بين يديه ، حتى أقبل الخادم فسمع منهما كلاماً ثم انصرف ، وأقبل صاحب القول يحمل آنيته وطعامه وحزماً من البصل . وانكب الشيخ على ما قدم إليه لا يعقل ولا يعي ولا يستأني ولا يكاد يمضغ أو يذوق ، إنما هي يد تنقل الطعام من مكانه على المائدة لتلقيه في مكانه الآخر من جوفه . حتى إذا امتلأ واكتظّر وحاول أن يطفىء نار الهضم بهذه الأقداح من الشاي التي ألقاها في حلقة إلقاء ، تهالك على كرسيه كما أراه الآن لا نائماً ولا يقظان ، وإنما هو شيء بين ذلك . وغلامه جالس بين يديه يرمقه في خزي وازدراء ، ثم ينظر في صحيفته ويشغل نفسه عنه بالقراءة . والله يعلم إلى أين يذهب إن إذا قاما . والله يعلم فيم ينطق شيخك الحمار أو حمارك الشيخ نهاره . وأكبر الظن أنه سيكذب ويمكر ويكيد ، ويسعى بين الناس بالشر ، ويظهر الطاعة والعبادة بين ذلك . فيؤدى الصلوات في أوقاتها ، ويضع جبهته حيث يريد الله لها أن توضع في هذا المسجد أو ذاك من المساجد التي

تلقاه في بعض الطريق . كلا ! ليس الحماران سواء يا سيدي . أحدهما حمار متحضر مثقف ، والآخر حمار وحشي غليظ .

قلت وقد أغرقت في الضحك : هما حماران على كل حال ، ولكن صورة الحمار الوحشي تعجبني من الناحية الفنية .

قال : كل يصف حمارة الوحشي كما يستطيع ؛ فما أظنك تريدني على أن أصفه كما كان الشعراء الأقدمون يصفون حرهم الوحشية . وإنك لتعلم أن أولئك الشعراء كانوا يرون حمراً تمشي على أربع ، أما نحن فنرى حمراً تمشي على رجلين . ثم صب لنفسه قلدحاً من الشاي وأخذ يدير المعلقة فيه مستأنياً بطيئاً ، كأنما يأتي عملاً آلياً على حين قد شردت نفسه وفارقتة إلى مكان بعيد . وسكت عنه حيناً فلم يتحدث ، ومضيت في الصمت فضي فيه ومضت يده تدير المعلقة في القدح . حتى إذا أنكرت منه ذلك قلت له : ويحك ! ماذا تصنع وفيك تفكر ؟ قال : يا سيدي إن الحمير لا تفكر ، ثم ألقى المعلقة من يده وأخذ يحسو الشاي مصمماً على الصمت وماضياً فيه . قلت : فإني أغضبتك حين شبهتك مع صاحبك بحماري العبادي ، فلا بأس عليك ، فواحدة بواحدة . لقد أغضبتني أول من أمس ثم اعتذرت لي ، وقد أغضبتك الآن وأنا أعتذر إليك ، فعد لي مثل ما كنا فيه من الحديث .

قال : ما أغضبتني وما أكره أن أكون حماراً ما دمت أعرف أنني حمار مثقف متحضر . فارتفاع القامة في السماء وانحناء الجسم إلى الأرض والمشي على رجلين أو على أربع ، كل ذلك لا يعنيني ما دمت

أجد اللذة والألم في الحس والشعور والتفكير . أتدري ماذا كنت أصنع حين أقبلت على آتفا ؟ . قلت لا . قال : فإنني كنت أتحدث إلى امرأتى فأطلت الحديث ، ثم أحسست أنها لن تفهم من حديثي شيئاً ، فطويت كتابي وتحدثت إلى أبي في الأسطر القصيرة التي أقرأها عليك . ثم أخذ يقرأ :
« والدى العزيز .

إذا انتهى إليك كتابي هذا ، فستجد معه صك الطلاق ، فإنني قد طلقت حميدة أمس على كره مني ؛ لأنني لا أدري كم يطول مقامي في أوربا ، وما أحب أن أفرض عليها حياة معلقة مع أنها لم تكن ذنباً ولم تقترف إثماً : وما لها تتعذب لأنني أريد أن أتعلم ، وتشقى لأنني أكلف بالاغتراب ! وإنني لحزون لهذا الطلاق الذي أقدمت عليه ، ولكن لا بد مما ليس منه بد : فاقراً عليها تحيتي وعذري واستوص بها وبأهلها خيراً . والسلام عليك ورحمة الله » .

ثم قال : وكذلك يا سيدي أديت في هذا اللفظ القصير السخيف معان لا تتسع لها الكتب الطوال ، لأن الله قد أراد ألا يفهم الناس عن الناس ، وأن تظل بينهم الحجب الصفاق ، فهم يعيشون ويتعاملون ويعتقدون أنهم يعيشون معاً وأنهم يتعاونون على الحياة ؛ وإن لكل واحد منهم لبرجاً من العاج يعيش فيه لا يظهر عليه أحد ولا يظهر هو منه على إنسان .

قلت : وكتابك إلى امرأتك ماذا صنعت به ؟ قال : طويته . وماذا

تريد أن أصنع به إلا أن أمزقه وأرميه في النار . قلت : فألقه إلى إن لم تجد بذلك بأساً . قال : وأى بأس أن تلتهمه أنت أو أن تلتهمه النار ! سواء على ، ولكن لا تطلب إلى أن أقرأ عليك هذا الكتاب ؛ فعذه وليقرأه عليك غلامك الأسود متى شئت . أما أنا فلمنى متعب مكدود ، وأظن أن قد آن لى أن أنصرف عنك ، فليس بد أن يخلو هذا البيت مما فيه من الأثاث . قلت : ستنصرف عنى ، وستخلى بيتك من أثاثه ولكن بعد أن تستريح ، فأنتقى معى بقية اليوم وافرغ لأمرى إذا كان الغد . وطم فلتنصرف إلى بيتى ؛ فلعلك تظفر فيه ببعض الراحة .

ثم نهضنا متتاقلين ، وخرجنا متباطئين . فلما جاوزنا الباب قال فى ضحك خفيف : ما زال حمارك الشيخ أو شيخك الحمار فى ركنه يقظان كالنائم ، ونائماً كاليقظان !

١١

يونيو فى . . .

لم يؤوفى البيت منذ فارقتك ظهر أمس يا حميدتى العزيزة . ومع ذلك فقد قضيت فيه وقى كله منذ انصرف بك القطار عن القاهرة إلى هذا الوقت الذى أكتب إليك فيه وقد كاد يرتفع الضحى . ذلك أن فى نفسى صورة لا تريد ولا أريد أنا أن تفارقنى ، وهى صورتك قبل الرحيل وقد انتحيت ناحية من غرفتنا ووقفت واجمة لا تنطقين . ثم لم أكد أقبل

عليك وأدعو باسمك حتى رفعت إلى عيناً مثقلة لا تريد أن ترتفع ، ثم
انهمرت دموعك انهمازاً صامتاً لا يتبعه ما يتبع دموع النساء عادة من
زفير وشهيق . وقد نظرت إليك وأنت في هذه الحال ساعة لم أقل لك
شيئاً ولم أقل لنفسى شيئاً ، وإنما وجدت كما كنت واجدة ، ثم انهمرت
دموعي كما انهمرت دموعك ، ثم قام كل منا في مكانه لحظات لا أدرى
أكانت طويلاً أم قصاراً ، ولكنها كانت لحظات صمت عميق يغمره دمع
غزير . ثم سعت إليك في رفق فضمتك إلى وطونتك بذراعي ، فلم
تقولي شيئاً وإنما أسندت رأسك إلى كتفي وظل دمعك ينهمر سخياً غزيراً
ثم أخذت رأسك بين يدي ، وثمت عينيك كأنما أريد أن أشرب دمعك
شرباً ، ثم قبلت جبهتك وخديك ، ثم ضمتك إلى مرة أخرى فقبلتني
ثم افترقنا ومضى كل منا في الاستعداد للرحيل .

لم تفارقني هذه الصورة أو هذه الصور ولا أريد أن تفارقني ؛ فما
زلت منذ أمس أنظر اليك واجدة وأرى دموعك تنهمر ثم أراك بين ذراعي
تدرفين دموعك على كتفي ، ثم أراي أقبلك وأراك تقبليني ، ثم أراك
تسعين في الغرفة ذاهبة جاثية تهين متاعك في طمت متصل لا يقطعه
شيء حتى ولا زقرة من الزفرات . ولقد اضطربت في المدينة بقية النهار
وشطراً من الليل ولقيت كثيراً من الناس فتحدثت إليهم وسمعت منهم ،
وخيل لي أنهم يفهموني وخيل لي أني أفهمهم ، وخيل إليهم في أكبر
الظن أني كنت كما تعودوا أن يروني دائماً ثثاراً ساخراً متصل العبث والمزاح
ولكن الله يشهد ما خلصت لواحد منهم ولا خلص لي واحد منهم ، وإنما

كنت أمنحهم بعض نفسى أو كنت أمنحهم أيسر ما يستطيع الرجل أن يمنح من نفسه . وكنت أرى أن هذا يكفى لأفهم عنهم ليفهموا عنى ، وكانت خلاصة نفسى مملوءة بك منصرفة إلى " تملؤها هذه الصورة وتمتزج بها امتزاجاً حتى لكأنها هى . ولست أدرى : أتعرفين أنى كثير التفكير والتحليل ، وأنى لا أحس شيئاً ولا أجده إلا فكرت فيه وحاولت تحليله وتعليله ! ولكن كيف تعرفين ذلك أو تقدرينه ولم يكن بينك وبينى إلا أيسر ما يكون من الصلات بين الأزواج ؛ فأنت لا تعرفين من أمرى إلا أقله وأيسره ، وأنا لا يفوتنى من أمرك إلا أقله وأيسره . لست أدرى أتعرفين أنى كثير التفكير والتحليل ١٤ ولكن حين رأيت إلحاح هذه الصور على " ولزومها لنفسى وامتلاكها لقلبى وامتلاء خواطرى بها وأحسست ما كان بينها وبين نفسى من الامتزاج ، أخذت أفكر فيمّ يقوله بعض الناس من أصحاب التصوف حين يتحدثون عن امتزاج الظرف بالمظروف والعقل بالمعقول والفكر بموضوع التفكير . ولكن فيما أتحدث إليك يا حميدة البائسة ؟ إنى لأقص عليك سخفاً لا يغنى ولا يستطيع أن يبلغ سمعك ولا أن يستقر فيه ولا أن يتجاوزه إلى قلبك الحزين . وما أنت وما هذا الكلام ؟ وما أنا والتحدث به إليك ؟ وإنما أريد أن أرسل إليك كتاباً كله حب وكله بر وكله حنان . فأين هذا مما أخذت أهذى به وأخوض فيه ؟ ! أفكُتِب علينا ألا تلتقى نفسانا فيطول بينهما اللقاء ؟ أفكُتِب علينا ألا يكون بيننا هذا الامتزاج الحلو الذى لا يخفى معه من أحدنا شيء على صاحبه لا من خسه حين يحس ، ولا من

شعوره حين يشعر ، ولا من تفكيره حين يفكر ؟ ! أفكُتِب علينا أن
تلتقى أجسامنا وألا تلتقى نفوسنا إلا لحظات قصاراً في نظرات قصار سراع
كأنما نختلسها اختلاساً ؟ ولكن أتفهمين عني ما أقول ؟ أتُحسِن ما
أُحس ؟ أتُجدين ما أجد ؟ إني لم أتعود أن أتحدث إليك مثل هذا الحديث
وإنما تعودت ألا أتحدث إليك إلا قليلاً ، ولا أتحدث إليك إلا في
أيسر الأشياء وأدناها إلى السخف وأشدّها اتصالاً بشئون حياتنا المادية
مما يمس شئون البيت . ما أذكر أني تحدثت إليك في الحب ، وما
أعلم أنك تحدثت إلى فيه . كنت أرى أنك لن تفهمي عني إذا تحدثت
إليك بما أجد . وكان الحياء يمنعك من أن تتحدثي إلىّ ببعض ما تجدين .
وكنا نكتفي بالنظرات الحلوة القصيرة يملؤها الحنان . وكنا نكتفي بحلاوة
الصوت ولين الألفاظ وعذوبة النبرات حين نتحدث في أي شأن من
الشئون ليُشعر كل منا بما يجد من الحب والعطف ومن الحنو والإخلاص
وكانت حياتنا على هذا النحو صريحة واضحة في شئونها المادية ،
وكانت رمزاً أو شيئاً أشد غموضاً من الرمز فيما يمس شئون القلب والنفس
والضمير . ولعلنا لم نشعر قط بأن لنا شيئاً من حياة القلب والنفس
والضمير ؛ فلم نفكر قط في تحليل ما بيننا من صلة أو في تأويله
وتعليقه . ومتى كنا نستطيع أن نفكر في ذلك وقد كنت مشغولاً عنك
بالعمل والكتاب ، وكنت مشغولاً عني بالبيت ، وكنا لا نلتقي إلا لتحدث
فيما يتحدث فيه الأزواج من الأمور غير ذات الخطر التي لا تمس قلباً ولا
نفساً ولا ضميراً . ماذا أقول ! وإلى من أكتب ؟ وإلى من أسوق هذا

الحديث ؟ أتريـن أنك تفهمين عني هذا الكلام ؟ ما أظن ! فكيف تفهمينه وأنت تسمعيـنه لأول مرة ؛ ومع ذلك فلأني شديد الحاجة إلى أن أتحدث إليك كما تعودت أن أتحدث إلى نفسي بهذا الأسلوب العسير الدقيق ، وعلى هذا النحو الذي لا ينقصه العوج ولا الالتواء .

ومع ذلك فقد كان يسيراً كل اليسر هذا المعنى الذي أردت أن أتحدث به إليك حين بدأت هذا الكتاب ؛ فقد كنت أريد أن أتيك بأني لم أستطع أن أستقر في بيتنا بعد فراقك ؛ لأني وجدت فيه وحشة نفثني عنه وجعلت مقامى فيه مستحيلاً ، فهمت في المدينة وتلمست السلوة عند الأصدقاء بقية النهار وطول الليل . ولم أستطع مع هذا أن أنسى البيت أو أنسى غرفتنا فيه أو أنسى صورتك في هذه الغرفة طول هذا الوقت برغم الاضطراب في الأرض والاختلاف إلى الأندية والاتصال بالأصدقاء .

هذا ما كنت أريد أن أتحدث به إليك حين أخذت أسطر هذا الكتاب ؛ فهو يسير سهل كما تريـن ، ولكني مع ذلك لم أكد آخذ فيه حتى تعقد والتوى بي أو التوى علىّ ، ودفعني إلى أنحاء من التفكير ومذاهب من القول بعدت بي عن الغاية ولم أخلص منها ، ولم أعد إلى ما كنت أريد إلا بعد مشقة وعناء . وكذلك أنا في حياتي الشاعرة مضطرب ملتو كثير الاستطراد ، لا أفكر في شيء إلا أثار لي أشياء ، ولا آخذ في مذهب إلا التوى بي إلى مذاهب تشق شقاً من نواحيه ؛ فأنا أيا من مرة وأيا من أخرى ، وربما نسيت الطريق التي أخذت فيها أول الأمر ، ومضيت

فى الاستطراء إلى غير أمد :

وكذلك أنا فى حياقى العملية لا آتى أمراً إلا أثار لى أموراً وفتح لى أبواباً من النشاط مختلفة الجهات باباً باباً . ولعلى ألج واحداً منها فلا أخرج منه ، وإنما تفتح لى أبواب أخرى . فأنا مضطرب حين أفكر ، وأنا مضطرب حين أعمل ، وأنا مضطرب حين أقول . والغريب أنى أستطيع مع هذا الاضطراب كله أن أعرف لحياقى وحدة وأن أتبين لها طريقاً متشابهة تنتهى أو تريد أن تنتهى إلى غاية مقاربة : ماذا أقول ؟ ! هأنذا قد بعدت عنك وعمّا أكتب إليك من أجله ، وفرغت لنفسى أو شغلت بها ؛ فأنا أدرسها وأسرف فى درسها وتحليلها ، وإن كنت أعلم أن لى من الوقت ما يكفى للنظر فى المرأة ولأرى هذه النفس التى أحب وأكره أن أراها . وليس لى من الوقت ما يسمح لى بالتحدث إليك فيما أريد إلا القليل . ومن يدرى ! لعل نفسى غير الشاعرة التى تجور بى عن القصد وتنحرف بى عن الطريق المستقيمة لأنها تشفق من المضى إلى الغاية التى من أجلها أكتب ، تشفق عليك وتشفق علىّ أيضاً . فإن الأمر الذى أريد أن أتحدث إليك فيه ثقیل خطير ، ما أحسب أنك تقوين على استماع حديثى فيه ، وما أشك فى أنى محتاج إلى شىء كثير جداً من الشجاعة والجلد لأمضى فى هذا الحديث . وكذلك ترفق نفسى غير الشاعرة بنفسى الشاعرة ، وتحمىها من بعض ما تكره ، وتريد أن تؤخر عنها العذاب . فما أشد سلطان الأثرة علينا ! وما أشد استئثار الضعف بنفوسنا ! وما أشد امتلاك الخوف لقلوبنا ولاسيما حين نزعم أننا أقوىاء وحين نريد

أن يظهر الناس على أننا أقوياء ! ولولا ذلك لما تكلفت هذا الكلام الطويل ، ولما دفعت إلى هذا القول الملتوى حين أحاول أن أنبئك نبأ مهما يكن ثقيلاً خطيراً فهو واضح لا غموض فيه ، ولكن أستحي منك وأستحي من نفسي وأشفق من الصراحة فأتقيها بالفلسفة والتواء الكلام . فلا تشجع . إذاً ولتشجعي أنت أيضاً ، ولأقل إذاً ولتسمعي أنت ما أريد . أن أقول ! إن القلم ليضطرب في يدي ، وإن يدي لتجمد فلا تكاد تتحرك ، وإني لاحتاج إلى أن أكف عن الكتابة حيناً لأسترد القوة والحرارة والنشاط . وهأنذا أستأنف الكتابة وأدافع عن نفسي دفاعاً شديداً لأحول بينها وبين الاستطراد ، ولأكرهها على المضي فيما تلمس الفراغ منه ، ولأحملها على أن تقسو عليك وعلى فتلقإ إليك بهذا النبأ وهو أننا لن نلتقي بعد اليوم .

أف ! لقد ألقيت العبء وتخففت من الثقل ، واستطعت أن أتنفس في غير حرج ولا ضيق ، وأحسست كأنني أصبحت طليقاً حرّاً . وقد كنت مقيداً مغلولاً ؛ لا لشيء إلا لأنني ألقيت إليك هذا النبأ بعد أن كنت أتحرج من إلقائه ، وأصبحت ملزماً أن أعله لك وأن أفسره وأن أرد عن نفسي ما سيثور في قلبك من الشبهات . وأنا أعلم أنك لن تصدقيني ولن تؤمنني لي ولن تقبلي شيئاً مما أقول . ولكنني أقسم مع ذلك ما طلفتك عن قِلي ولا فارتكتك عن زهد فيك أو رغبة عنك أو نفور منك . وإني أقسم ما أحبيتك قط كما أحبك الآن ، وما آثرتك قط كما آثرتك الآن ، وما عرفت سلطانك على ويدك عندي كما عرفتهما

الآن . بل أقسم إنى لأحس كأنما أشطر قلبى شطرين ، فأحفظ شطره
فى صدري وأرسل بشطره الآخر إلى مكان بعيد فى أعماق الريف حيث
لا يتاح لى أن ألقاه . بل أقسم ما طلقتك إلا حباً فىك وإيثاراً لك وضناً
بك على ما أكروه . ولاكن صادقاً كل الصدق ، فإن الضعف والعجز
والخور ، كل هذه العيوب هى التى تدفعنى إلى أن أفارقك أشد ما
أكون لك حباً وأعظم ما أكون لك حباً وأعظم ما أكون عليك حرصاً . لم
أستطع أن أترك على أوربا فأبقى معك ، ولم أستطع أن أطمئن إلى
أنى سأكون وفيّاً إذا عبرت البحر فأحتفظ بما بيننا من صلة الزواج .
ولست أريد هذا الوفاء الذى يتصل بالنفس ، فأنا واثق بأنى قادر
عليه ، بل أنا واثق بأنه سيعذبى وسيكلفنى آلاماً وأسقاماً . إنما أريد
الوفاء الكامل الشامل الذى يملك النفس كلها والقلب كله والضمير كله
والجسم أيضاً . أريد هذا الوفاء الذى لا يبيع شركة ولا توهم للشركة ولا
تفكيراً فيها . وأنا آسف أشد الأسف محزون أشد الحزن ، لأنى أعلم
أنى سأعرض للفتنة إذا عبرت البحر ، وأن بعض اللحظ سيمس قلبى ،
وأن بعض الجمال سيسهوينى ، وأن بعض الشر سيدفعنى إلى شئ من
الغى . وما أحب أن أعرض حبك ، استغفر الله ، بل ما أحب أن
أعرض زواجنا للإثم والفساد . لا أستطيع أن أخفى عليك ما قد أقترف
من إثم ، لأنى لم أعودك ولم أعود نفسى الكذب . ولا أستطيع أن
أعترف لك بما قد أقترف من إثم ، لأنى إن فعلت آذيتك فى غير حق
وفى غير جدوى ، وعرضت ما بيننا للفساد . وأنا إن كذبت عليك أهنت

نفسى بالكذب . وإن اعترفت لك أهنت نفسى بالاعتراف . وإذا فبالى
لا أستقبل الحياة شجاعاً جريئاً مستمتعاً بلذاتها محتماً لتبعاتها !! كم
كنت أريد أن أكون قوياً قادراً على أن أقاوم الشر وأعاف الإثم ، وأحتفظ
بقلبى طاهراً نقياً ، ويجسمى عفيفاً نظيفاً ، وأردهما إليك بعد العودة كما
ارتحلت بهما عنك أول الرحيل ، ولكنى عاجز عن ذلك ، أو عاجز عن
الاطمئنان إلى ذلك . والغريب أن من الممكن أن أعبر بحر الغواية ولا
أغوى ، وأن أقضى أعوام الغواية نقياً طاهر القلب ، وأن أكون قد شققت
على نفسى بهذا الحرج وحملت ما كنت أستطيع ألا أحملها . هذا ممكن
ولعله أن يكون . ولكنى لا أكتفى بالممكن ولا أطمئن إلى الظن ، إنما أريد
الثقة ولا سبيل إليها ، وأطمع فى اليقين ولا أمل فيه . ولهذا أتكلف ما
أتكلف وأقدم على هذا الأمر العظيم .

أترين أنك فهمت عنى ؟ ما أظن ! ومتى فهم العقلاء عن المجانين ؟
أترين أنك صدقتنى ؟ ما أظن ! ومتى صدق الناس مثل هذا الهذيان ؟
يا للحزن ويا للأسى ! لمن أكتب هذا الكتاب وإلى من أسوق هذا
الحديث ! إنك إن قرأته فلن تفهميه ، وإن فهمته فلن تقبله ، فكيف
وأنت لن تقرئيه ؟ ! إني لغافل ذاهل ، إني لمدلّ مجنون . لقد أنسيت
أنك لا تقرئين ولا تكتبين فن الذى سيقراً عليك هذا الكتاب ويفسره لك
من أهل الريف ؟ كلا لن أتمه ولن أرسله إليك ، ولن تعلمى من
أمرى إلا أنى رجل قاس غليظ مسرف فى كفر النعمة وجحود الجميل !
متتبع للأهواء والشهوات ، لا أخرج من شىء ولا أعرف لجحوح

نفسى غاية تنهى إلیها أوحداً تنقف عنده : سيسةط النبأ فى أسرتنا كما تسقط الصاعقة ، وسيلقونه إلیك فى عنف أو فى لين ، وستجزعين وتظهرين التجلد ، وسيبكى قلبك وتتكلف عينك الجمود . ثم ستمر الأيام ، وستحربين على أن يصل إلیك بعض أنبأى دون أن يعرف منك هذا الحرص . ثم سیأتى الخاطبون . كلا ! لا أريد أن أمضى إلی أبعد من هذا الحد فى التفكير ، فما أرى أنى أقوى على هذا المضى . لقد أبطأ على صاحبى وكلفنى انتظاراً طويلاً . ليته يقبل فيخرجنى من هذا العناء ... »

قرأ غلامى الأسود الصغير هذا الكتاب بعد أن انصرف عنى صاحبى فلم أكد أفرغ من قراءته حتى رثيت له ، وسألت نفسى كيف يكون موقع هذا الكتاب من حميدة البائسة لو أنها استطاعت أن تقرأه وتظهر على ما فيه !

١٢

يوليو فى

لم تفارقنى صورتها بعدُ أيها الصديق العزيز ، ومع ذلك فقد مضت أيام وأيام منذ انصرف بها القطار إلی قريتها فى الريف ، وحدثت بعد ذلك أحداث واختلقت شئون ، فلقيت من لقيت وتحدثت إلی من تحدثت إلیه ، وأقدمت من الأمر على اليسير والخطير ، ثم كانت الرحلة وهبط بى القطار إلی البحر ومضت بى السفينة إلی ما وراء البحر ، وهأنذا

أكتب إليك في غرفة من غرفاتها . وشهد الله ما فارقتني صورتها أثناء هذا كله في لحظة ولا في نوم .

ولقد سألت نفسي منذ عهد بعيد عن خير ما يستطيع الصديق أن يتمناه للصديق . وسألت نفسي حين عرفتك فأحببتك ، وحين فارقتك فجزعت لفراقك ، عن خير ما أستطيع أن أتمناه لك ، وعرضت على نفسي أجوبة مختلفة لهذا السؤال كنت أطمئن إلى بعضها حيناً ثم أدعه ، وكنت أنصرف عن بعضها الآخر حيناً ثم أعود إليه . ولكن الحياة نفسها قد أجابت عن هذا السؤال جواباً ما أحسب أني سأتحول عنه . فخير ما أتمناه لك وخير ما أتمناه للصديق وخير ما أتمناه للعدو إن طابت نفسي وأحببت للعدو خيراً ، هو أن يجنبك الله أسباب الندم ، ويعصمك من الاضطراب إليه والإيغال فيه . فلست أعرف ألماً أشد ولا حزناً ألدع ولا عذاباً أمض ولا شقاء مفسداً للحياة كهذا الذي يثيره الندم في نفس الرجل الذي يقدر من الأمر ما يأتي وما يدع .

وإنى لأقول لك هذا عن علم ، وأتحدث به إليك عن تجربة . وأي تجربة ! تجربة وددت لو أني تحملت كل ما ذقت من الألم منذ عرفت الألم مرة واحدة ولم أدفع إليها . فيالها من منغص ما كبر قادر يعرف كيف يلقاك جهرة فيقطع عليك كل أمل ، ويأخذ عليك كل طريق ويردك إلى حزن مظلم متكاثف الظلمة لامنفذ للنور منه ، فإذا ألح عليك بالهم والحزن وبالتنغيص المتصل والكدر المتقطع حتى انتهى بك أو كاد ينتهى بك إلى اليأس المهلك ، جلا عنك غمراته ، ونفس عن

قلبك وعقلك بعض الشيء ، وخيل إليك أنك قد رُددت إلى الفضاء
الواسع والهواء الطلق والضوء المشرق . ولكنك لا تكاد تذوق الراحة وتطمئن
إلى بعض الأمن ، حتى يمسك هذا الشيطان الخفى مساً رقيقاً ولكنه عنيف ،
ليناً ولكنه يبلغ غاية القسوة . يحجز نفسك بين حين وحين وخزاً يسيراً ضئيلاً
خفيفاً لا يكاد يحس ، ولكنه يذكرك بمكانه وينبهك إلى أن في هذا الهواء
الطلق راحة لجسمك إن تنسمته مطمئناً فارغ البال . ولكن يجب عليك
ألا تطمئن وألا يفرغ بالك ، فهو هنا قريب وإن ظننته بعيداً ، وإنه
دان منك كل الدنو وإن حسبته نائياً عنك كل النأي . فإن كنت في
شك من ذلك فانظر واشعر وسل نفسك عن هذا الوخر الخفيف الذى
تجده ، ما هو أو من أين يأتيك ؟ فستعلم أنه مس هذا الشيطان وألم
هذا الندم الذى إن رقة عليك فإنه لم ينسك ، ولا ينبغي له ولا ينبغي
لك أن تظن أنه سينساك .

نعم ! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة في الحديث مع من يحسن معه
الحديث ، وفي التفكير فيما يحسن فيه التفكير ، ولكنه كفيل أن ينغص
عليك لذة الحديث والتفكير بوخزة من هذه الخزات الرقيقة الضئيلة
التي يمسك بها في ناحية من نفسك ، فإذا أنت تقطع الحديث فجأة
وتصرف عن التفكير فجأة ، كأنما ذكرت شيئاً كنت تنساه .

نعم ! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة والمتاع في قراءة الكتاب القيم
الذى يغذى عقلك وحسك وشعورك بما شئت من علم وأدب وفن ،
والذى تود لو تفنى فيه فناء وتمتزع به امتزاجاً وتنسى لقراءته الزمان

والمكان وما يشتمل عليه الزمان والمكان ، ولكنه خليق أن يحول بينك وبين ما تريد من هذا ، وأن يفسد ما تجد من لذة ومتاع بوخزة من هذه الوحزات التي يمس بها نفسك في ناحية من نواحيها ، فإذا يدك تتحرك حركة آلية فتضع الكتاب ، وإذا رأسك يتحرك حركة آلية فيرتفع إلى السماء ، وإذا أنت واجم قد أنسييت ما كنت فيه ، واشتمل عليك ذهول غامض واضح معاً ، فيه انصراف عن كل شيء ، وفيه شعور بهذا الشيطان الذي يفسد عليك كل شيء . وقد يكون هذا الشيطان أخفى من ذلك مكرراً وأدق حيلة ؛ فهو لا يصرفك عن الكتاب ولا يلقيه من يدك ولا يحوّل عنه عينيك ، ولكنه يسايرك في القراءة كأنه الرفيق ، ويلقى أثناء ذلك كلمات وخواطر لا صلة بينها وبين ما تقرأ ، فإذا هي تختلط بما تقرأ ، وإذا هي تحول نفسك عما في الكتاب ، وإذا أنت تقرأ بعينيك دون أن يصل شيء مما تقرأه إلى نفسك .

وقد يغلو هذا الشيطان في المكر بك والكيد لك ، فلا يسايرك في القراءة ، ولا يلقي في نفسك كلمات ولا خواطر ، ولا يصرفك عن الكتاب وإنما يصرف الكتاب عنك صرفاً ، يثير بين الحروف والكلمات والسطور صوراً ومظاهر وألواناً من الخيال . تراها وأنت كاره لرؤيتها ، وتحاول أن تخلص منها إلى هذه الحروف والكلمات والسطور فلا تجد إلى ذلك سبيلاً . فالكتاب بين يديك ولكنه بعيد عنك . والكلمات أمام عينيك ولكنها تفر منك . هي تفر وأنت تطلبها ، وهذا الشيطان يلقي بينها وبينك غباراً من هذه الصور والمظاهر والخيالات . وقد يزدريك هذا الشيطان

فلا يتكلف فى تعذيبك جهداً ولا عناء ، وإنما يداعبك فى رفق ويلاعبك فى استهزاء . فأنت فى حديثك أو فى تفكيرك أو فى قراءتك ، وإذا صورة ضئيلة يسيرة رقيقة تترأى لك ، فتمر بين نفسك وبين ما تريد أن تقول أو تفكر أو تقرأ ، ثم لا تلبث أن تنجلى عنك فى سرعة البرق الخاطف ، فإذا أنت تعود إلى ما كنت تقول وما كنت تفكر وما كنت تقرأ ، ثم ما تزال بك مقبلة مدبرة ، وسانحة بارحة ، ولمحة منصرفة ، حتى يجهدك الشيطان ولم يصبه الجهد ، ويشق عليك ولم تدركه المشقة ، ويؤنسك من الحديث والتفكير والقراءة وهو جالس غير بعيد ، ينظر إليك فى احتقار وازدراء ، وفى سخرية واستهزاء .

كل هذا وجدته أيها الصديق العزيز منذ مضى بها القطار إلى قريبها فى الريف . وما زلت أجده الآن والسفينة تضى بى إلى فرنسا متكلفة مع البحر فنوناً من السير ، تجاهده جهاداً عنيفاً حين يهيج وتضطرب به أمواجه وتعصف به الرياح ، وتداعبه دعاة حلاوة حين يهدأ ويستقر ويبعث على سطحه النسيم . وكم منيت نفسى منذ أخذت أتمها لهذه الرحلة أن أجده هذه اللذات المتباينة التى يجدها المسافرون فيما يكون بين السفينة والبحر من جد وهزل ، ومن خصام ووثام . ولكن هذا الشيطان قد حال بينى وبين ما كنت أتمنى من ذلك ، فأفسده على إفساداً ونغصه على تنغيصاً . ولو أنه ألقى بينى وبين ما أريد من ذلك حجباً صفاقاً وأستاراً كثافاً لهان الأمر ولكان اليأس منه مريحاً ، ولكنه يشرف بى على اللذة لإشراقاً ويعمن بى فيها إمعاناً ، ثم يقطع أسبابها قطعاً ،

ويعصني عنها أو يصدّها عني أشدّ ما أكون كلّفاً بها واندفاعاً إليها
واستعداداً لاجتناب ما هيأت لي من ثمرات .

جنبك الله الندم أيها الصديق ، وعصمك من أثقاله فإنها لا تحتمل ،
ومن آلامه فإنها لا تطاق .

ولست مع هذا كله مبغضاً لشیطان الندم ، هذا الذي يعذبني ،
ولا منكراً عليه ؛ فأنا أعطى الحق من نفسي وأقبل راضياً أو كارهاً
ما ليس من قبوله بدّ . فأنا قد اقترفت الإثم ، ولا بد من أن أحتمل
أثقاله وأنجزع آلامه . والإثم عندي شجرة لا بد من أن تؤثّق ثمرها إذا
صادفت من الخصب ما يمكنها من النمو والإثمار . وإنما تصادف الخصب
وأسباب النمو والإثمار حين تصادف نفساً كريمة حرة دقيقة الحس قوية
الشعور . والندم عندي آية من آيات الكرم ، وعلامة من علامات
السمو ، ومظهر من مظاهر الارتفاع عن الدنّيات ، ودليل من أدلة
خصب النفس وجودة أصلها واستعدادها للخير وحسن البلاء فيه .
وإني لأبغض النفوس المجذبة التي لا تعرف ألماً ولا ندماً ، والتي تموت
فيها أشجار الآثام والخطايا ، كما يموت النبات في الصحراء المحرقة المهلكة .
وإني لأبغض هذه النفوس ذات الخصب السيئ الرديء ، التي
تغرس فيها أشجار الخطيئة والإثم ، فلا تموت ولا تجف أعوادها ،
وإنما تثمر خطايا وآثاماً .

أترى أيها الصديق أني مغرور مسرف في الغرور ! أتعزّي عن الألم
والندم بتزكية نفسي ، وأكاد لا أكره ما أقترف من الآثام لأنه يشعرنّي

بأنى كريم النفس نبيل الطبع نقي الضمير ؛ ولكن لا تنكر على هذا
الغرور ، ولا تلمنى فيما أتمس لنفسي البائسة من ضروب التسلية وألوان
العزاء . فلولاً هذا الغرور لأهلكنى ما أجد من الحزن ، ولقضى على
ما أحس من الندم ، ولدفعت إلى اليأس المهلك دفعاً .

ولمى لأعجب كيف انجلت عنى غمرة الأمل وصرفتُ صرفاً عن
هذه الخيالات الجلوة التى كنت أخلقها لنفسي خلقاً ، وأستعين بها
على ما كنت مقلماً عليه من الطلاق حين كنت أتصور الحياة الجديدة
فى فرنسا ، وما تلخر لى من لذات مختلفة لا تفتنى . فأنا أحاول الآن
أن أتصور هذا البلد الذى أنا مقبل عليه ، فلا أرى إلا هذا البلد
الذى أنا منصرف عنه .

أحاول أن أتمثل السربون فلا أرى إلا جامعتكم المصرية . وأحاول
أن أتمثل رفاقى من الفرنسيين فلا أرى غيرك وغير أصحابك الشيوخ . ثم
أحاول أن أتمثل جمال باريس فلا أرى إلا القاهرة وأحاول آخر الأمر
أن أضلل نفسي وأعللها وأمنيتها الأمانى الآئمة ، أحاول أن أتمثل المرأة
الباريسية فلا أرى إلا حيدة قائمة أمامى كهيتها يوم كانت تستعد
للرحيل فى بكاء متصل وصمت عميق .

مهملأ أفعل لأنظر إلى أمام فأنا مكره على أن أنظر إلى وراء . فلا
تلمنى إذا حين أعجز عن أن أخرج من نفسي ، وعن أن أتمس العزاء
إلا فيها ؛ فأنا أتلهى بهذا الغرور عن هذه الأهوال المنكرة التى تأخذنى
من كل مكان وتسعى إلى من كل صوب . وما لى لا آلم ولا أندم

ولا أتجشم من ذلك أهوالاً وقد اقترفت إثمًا عظيمًا حقًا ، لقد كنت أخافك أيها الصديق فلم أصور لك من هذا الإثم : إثم الطلاق ، إلا أيسره وأهونه . لم أصور إلا ما فيه من ظلم البريء والاعتداء على من لم يستحق الاعتداء ، وقد لقيت منك منع ذلك لومًا شديدًا وإنكارًا عنيفًا ، ونبوءًا كاد يفسد ما بيننا من الود ، فكيف لو صورت لك حقيقة الإثم الذي اقترفته ! وكيف لو كشفت لك عن وجهه الذي أخفيته عليك .

لقد أفلت منك أيها الصديق ، ولقد بلغ الكتاب أجله ، وقطعت الأسباب بين حميدة وبينى ، وبعدت بى الدار ، فلا أمل الآن فى إصلاح ما فسد ، ولا خوف الآن من أن تصدنى عن الرحيل . الآن أستطيع أن أظهر لك على نفسى كلها . . والآن أستطيع أن أنبئك بإثمى كله ، وأنا أعلم أنك ستحتقرنى وستزدرينى . . وما يعينى من ذلك وأنا أحتقر نفسى وأزدرىها ! ! فلن يصرفنى احتقارك إياى وأزدرائك لى ، ولن يصرفنى احتقارى لنفسى وأزدرائى إياها عن أن أتمثل هذا الإثم القبيح وأملأ به خلوى ، وأتغنى بآلامه فيما بينى وبين نفسى غناء قبيحاً منكراً بشعاً أكرهه أشد الكره ولكن أمعن فيه أشد الإمعان .

لن يصرفنى ازدرائك لى وأزدرائى لنفسى عن هذا كله ، وعن أن أسجل نعمات هذا الغناء البشع فى هذا الكتاب الذى أرسله إليك . .

لست ظالمًا فحسب أيها الصديق ، ولكنى كافر للنعمة منكر للجميل . فلم تكن حميدة زوجى فحسب ، ولكنها كانت منعمة على منقذة لى .

رضيت بى بعد أن نبذنى غيرها ، ومنحتنى ودها وجها بعد أن أعلن غيرها
أنى لست أهلاً لود ولا حب .

إن لهذا قصة لم أنساها ولن أنساها ، لأنها مزقت نفسى تمزيقاً ،
وعذبت قلبى تعذيباً ، وأذنتى فى أعز شىء على وهو الغرور والاعتداد
بالنفس .

لقد كان أبواى كغيرهما من أهل الريف يعداننى لعروس غير
حيدة . وكان أهل هذه العروس يعدون ابنتهم لى منذ نشأنا صبيين .
وكانت الفتاة ابنة عمى ، ولم تكن جميلة ولا وسيمة ، ولكنها على ذلك
كانت محبة إلى أثيرة عندى ، لكثرة ما سمعت منذ الطفولة من حديث
الزواج .

ولكنك لم تر وجهى ولا شكلى أيها الصديق . وأكبر الظن أنك
عرفت من صوتى أنى قبيح الشكل دميم الوجه بعيد كل البعد عن أن
أروق العذارى ، وأرضى أهواء النساء . ولم أكن أرى ذلك فى نفسى ولا
أعترف به عليها . وتى رأيت رجلاً قبيحاً دميماً يؤمن بأنه قبيح دميم !
ولكن فهمة كانت ترى ذلك وتتأذى به وتنفر منه أشد النفور ،
وكانت تكره أن يتحدث إليها أهلها وأترابها بأمر الزواج ، ولكنها لم
تكن تظهر الكره وتعلن الإنكار ، حتى إذا جد الجد وتقدمت بها وبى
السن ، وأخذ أهلنا يفكرون ثم يتحدثون فى أمر الخطبة ، جهرت بالرفض
جهرًا وأعلنت الإباء إعلاناً ، وخرجت فى ذلك عما هو مألوف من
أمثالها من فتيات الأسر فى الريف ، فنبت على أمها نبواً وامتنعت

على أبيها امتناعاً ، وأعلنت أنها تؤثر الموت على أن تكون زوجاً لهذا الشاب الدميم .

وتصور أنت موقع هذا الرفض من نفسى وأثره من قلبى وفيما كان يملأ نفسى وقلبى من غرور . ثم تصور أن حميدة كانت أبرع من ابنة عمى جمالاً وأكثر منها مالا ، وأذكى منها قلباً ، وأحسن منها مستقبلاً ، وأنها مع ذلك سمعت رفض فهمية فأنكرته وأظهرت إنكارها ، وتعمدت أن يصل حديث هذا الإنكار إلى أهلى ثم إلى ، وكان هذا الإنكار وما أظهرت من أمره وسيلة المودة ثم وسيلة الخطبة ثم وسيلة الزواج . وما زالت فهمية تنتظر الزوج إلى الآن ، ولكن حميدة قد طلقت . فانظر إلى الإحسان كيف يكافأ بالإساءة ، وإلى النعمة كيف تكافأ بالكفر ، وإلى الجميل كيف يكافأ بالعقوق ! ومع ذلك فإنى لأنظر الآن فى المرأة أمامى فأستكشف فى وجهى وخلقى من الدمامة والقبح ما ينهض بألف عذر وعذر لابنة عمى ، وما يثقلنى بألوان الندم حين أفكر فيما جزيت حميدة به من العقوق .

أتعرف أنى أسافر على سفينة إنجليزية ؟ فقد تهيأت لهذه السفينة وأنبأنى المنبثون بأن المسافرين على السفن الإنجليزية إذا استقبلوا المساء لبسوا له لباساً خاصاً لا يقبلون فى غرفة المائدة بدونه ، فاتخذت لنفسى هذا اللباس واتخذته على أحسن ما يتخذه المترفون . فلما أقلعت السفينة وأقبل المساء عمدت إلى هذا اللباس فدخلت فيه ، واتخذت ما يتصل به من زينة ، وكانت صورة حميدة لا تفارقنى ،

وكانت صورة فهيمة تعرض لى من حين إلى حين . فلما تهيأت للخروج من غرفى سمعت قهيمة تنكر قبضى ودمامتى ، ورأيت حميدة تبسم لى وتشير إلى . هنالك نظرت فى المرأة فرأيت ، ثم استحييت ثم بكيت ، ثم نزعنت هذا اللباس نزعا ، ولم أخرج إلى غرفة المائدة هذا المساء . ثم أصبحت فتكلفت المرض وأخذت نفسى بأن آكل فى غرفى . وأقسمت لا أغشى غرفة المائدة ولا مجالس السفينة اجتناباً لسخرية النساء ؛ فما أرى منذ الآن إلا أنهن جميعاً فهيمة .

أترى إلى أى حد انتهى الاضطراب بعقل صديقك وبما له من حس وشعور ؟ ولن تعلم حميدة من هذا شيئاً ، ولن تعرف حميدة أنى أجد من الندم على فراقها ما يفسد على حياتى لإفساداً ، ويوشك أن ينتهى بى إلى شر ما ينتهى إليه الأحياء .

ليتنى سمعت لك ! وليتنى قنعت بما كنت أنعم به فى مصر ! فما أظن إلا أنى مقدم على سراب أحسبه ماء ، حتى إذا بلغته لم أجده شيئاً .

وأخرى لم تعرفها أيها الصديق ، ولا بد لك من أن تعرفها لتعلم أنا مكرهون على أكثر ما نأتى من الأمر ، وأن اختيارنا لعب كله وغرور كله . فقد كنت أحسب أن الناس لا يعلمون من أمرى إلا ما أريد أن يعلموا فأنبئهم به وأظهرهم عليه . وكنت أظن أن أكثر من عرفهم فى القاهرة وعرفونى يجهلون أمر زواجى جهلاً تاماً . وكنت واثقاً بأنى أستطيع أن أكذب على الجامعة إن أردت ، وأن أزعم لها

أنى أعزب وأن أمسك على زوجي وأسافر إلى أوروبا لا أصطحبها .
وكننت مع ذلك حريصاً أشد الحرص على ألا أكذب على الجامعة .
ولم يكن يدفعني إلى هذا إلا حب الصدق وإيثار الخلق والضم بكرامة
العلم وطلابه على الكذب الظاهر والخفي . وكننت أحد من نفسى
هذا الإقدام على التضحية ، وهذا النصيح للجامعة ، وهذا الإلحاح
فى أن أكون صادقاً معها فى السر والعلانية معاً .

وكثيراً ما وجدت فى هذه التضحية التى كننت أحبها وأرضى عنها
مظهراً من مظاهر الغرور ، ومصدراً من مصادر العجب والته والإكبار
للفنفس ، وكننت أقول لنفسى إذا خالوت إليها : ليس كل الناس قادراً على
أن يبلغ من حب الصدق وإيثاره هذا الحد . فأنا إذاً شخص نادر وفرد
ممتاز . ومن حق الجامعة أن تفخر منذ الآن بخلقى ، كما أنها ستفخر بعد
قليل بجدى واجتهادى وكفائتى فى البحث وقدرتى على الدرس والتحصيل .
وكان هذا الخاطر الجميل يملؤنى ثقة بنفسى وإكباراً لها ورضاً
عنها . ولعل ذلك كان يظهر فيما كننت آتى من حركة وما كننت ألقى
من جمل . بل لعل هذا كان يظهر فيما كان وجهى يأخذ أحياناً من الصور
والأشكال . ولكن لا تسلم عما أدركنى من الدهش ، وما أصابنى من
خيبة الأمل ، ولم ملاً قلبى ذات يوم من الحيرة والاضطراب حين
دعانى سكرتير الجامعة لأزوره . فلما لقيتهم يظهر الراحة للقائى ،
ولم يتكلف الأئس بمقدى ، كما كان قد تعود من قبل ، وإنما لقينى
فاتراً وحدثنى بصوت متكسر ، ثم لم يلبث أن أظهر من التجهم والتكبر

والاستطالة ما أنكرت ، ثم لم يلبث أن ألقى على حديثه قصيراً متقطعاً سريعاً كأنه الصواعق يتلو بعضها بعضاً ، وقد اتخذ صورة الأستاذ ولطجته ، وصوت الواعظ الغالى فى التأنيب ، فما ينبغى لطالب العلم أن يكذب وهو القدوة ، وما ينبغى له أن يغش وهو الأسوة ، وقد كانت الجامعة مخدوعة لى . فالآن وقد تبين لما الحق وانكشف لها السر تستطيع الجامعة أن تزهد فى زهداً ، وأن تنصرف عني انصرافاً . بين الذين تقهقروا للامتحان ونجحوا فيه من يستطيعون أن يشغلوا مكانى فى البعثة ، وأن يطلبوا العلم صادقين غير كاذبين ، ومخلصين غير متورطين فى الغش ولا متكلفين للخداع . والجامعة تؤثر ألف مرة ومرة أن تعدل عن إرسال البعوث ، وأن تغلق أبوابها لإغلاقاً فى وجه الطلاب الذين يختلفون إليها على أن تهبى للأمة أساتذة يقيمون حياتهم العلمية على الكذب والغش ، وعلى الخداع والنفاق .

ولست أخفى عليك أنى ضقت بهذا الواعظ الثرثار ، وتعجلته إتمام الحديث والانتهاء إلى ما يريد . فلم يتردد فى أن يلقى إلى ما عنده إلقاء فيه كثير من الازدراء . قال : زعموا أنك متزوج يا سيدى ، وقد زعمت لنا أنك حر طليق .

هنا أريد أن أستغفرك أيها الصديق ، وما أدرى أنغفر لى ؟ ! فقد أسأت بك الظن واتهمت بك بأنك أقدمت على الوشاية بى مخلصاً حسن النية تريد أن تحول بينى وبين الظلم ، كما أقدمت أنا على تطبيق حميدة مخلصاً حسن النية أريد أن أفرغ للعلم وأن أتجنب الخيانة والإثم .

نعم ! أسأت بك الظن واتهمتكَ ، ورأيت ما بيننا من الصلات
وقد تصرم وتقطعت أسبابه ، وأحسست شيئاً من الحزن لكذب ظنى
بك وخيبة أملى فيك . وكان هذا كله سريعاً مسرفاً فى الإسراع لم
أكد أنتبه إليه ، ولم يتنبه سكرتير الجامعة إلى أن شيئاً غيره وغير .
حديثه كان يشغلنى . فقد أخذت أسأله من زعم لك هذا السخف ؟
ومن ألقى إليك هذا الهذيان ؟ وكيف تسمع الجامعة لكل ما يلقى من القول
إليها ! وكيف تصدق كل ما يرفع إليها من الحديث ! وما ينبغى لك
أن تلومنى هذا اللوم ، وتؤنبنى هذا التأنيب ؛ قبل أن تتحقق أنك
تهمنى بما لا أستطيع له دفعاً ، وتأخذنى بما لا أجد منه مخرجاً !

قال الرجل : مهلاً يا سيدى ، فليس يغنى عنك ما أنت فيه
منذ الآن من التجاء إلى الجدل وشغف بالمرء ؛ فقد ألقى إلينا أنك
متزوج ، ثم ألقى إلينا اسم الأسرة التى أنت مصهر إليها ، فلم نأخذ
بالظنة ولم نطمئن إلى الريبة ، وإنما بحثنا واستقصينا وسألنا حتى تبين
لنا الحق وعرفنا أنك قد خدعتنا وضللتنا تضليلاً . وما دعوناك اليوم
إلا لنقطع ما بينك وبيننا من صلة ففرد إليك ما أخذنا منك ، ونسترد
ما أخذت منا .

قلت وقد ثاب إلى عقلى كله ، وحرصى على البعثة : قد كان
ذلك ممكناً منذ أيام ، أما الآن فلا . ثم قدمت إليه صك الطلاق .
فلم يكده ينظر فيه حتى تغيرت حاله معى تغيراً تاماً ، وإذا هو يصفافحنى
مكبراً لى معجباً بى . ألم أقدم على عمل خطير ! . . . ثم تبسط معى فى

الحديث وقد ضم الصك الذى دفعته إليه إلى ما ينبغي أن يحفظ من أوراق عنده ، وما زلت أتلطف له وأمكر به ، حتى أطلعنى على ذلك الكتاب الذى ارتفع إليه بالنسيئة وأنباه بزواجى . فقرأت ويا شر ما قرأت ! وعلمت ويا شر ما علمت ! علمت أن صاحب هذا الكتاب صديق لى متصل بى ، يتكلف المودة ويظهر النصيحة والإخلاص ، ولكنى علمت أنك لست صاحب هذا الكتاب ولا متعرف هذه الوشاية .

وخرجت من الجامعة راضياً ساخطاً ومسروراً محزوناً . راضياً لأن البعثة لم تغلت منى ، وراضياً لأنك أنت لست الواشى بى . وساخطاً لما انطوت عليه جنوب الناس من المكر والخداع ، ومن الكذب والنفاق ، ومن الحسد الذى يفسد عليهم كل شىء .

فلم يكن لهذا الصديق الذى وشى بى طمع فى البعثة ولا طموح إليها ، وإنما هو الحسد وحده . رأى أنى سأسافر إلى حيث لا يستطيع ولا يأمل أن يسافر ، ورأى أن حالى قد تنغير وأن حياتى قد تصلح ، وأنى قد أرقى إلى منزلة لا يستطيع أن يطمع فيها ولا أن يسمو إليها ، فكره ذلك وضاق به ، ثم جد فى أن يحول بينى وبين ذلك ، وأن يمسكنى فى المنزلة التى أمسكته فيها الظروف ، فأبقى مثله خاملاً متواضعاً محدود الأفق من البيت إلى الديوان ، ومن الديوان إلى البيت ، والقهوة بين ذلك أحياناً .

نعم أيها الصديق ! خرجت راضياً وساخطاً ، وأنا لا أفكر حين

كنت أحس الرضا أو أجد السخط إلا في شيء واحد ، وهو أن كيداً كان يكاد لي فخلصت منه ، وأن مكرّاً كان يمكر بي فانتصرت على أصحابه ورددت سهامهم في نحورهم . ثم هبط بي القطار إلى البحر ، وأخذت السفينة تمضي بي إلى ما وراء البحر ، وأخذت صورة حميدة تلزمني وتلح عليّ ، وأخذت الدم يثير في نفسي من الخواطر ما يثير ، وإذا أنا الآن أسأل نفسي عن هذه الوشاية التي أنكرتها : ألم تكن خيراً قد صرف عني وحيل بيني وبين الانتفاع به ؟ فلو قد نجحت هذه الوشاية وحيل بيني وبين البعثة لكان هذا الإخفاق أول العقاب على ما جنيت من ذنب ، ولكان نذيراً بما كان ينتظرني من الشر إن تمت على ما بدأت من الظلم ، ولكان خليقاً أن يردني إلى حميدة أو أن يرد حميدة إليّ . ولكن الله لم يرد إلا أن يقدم بين يدي هذه الرحلة نذيراً بما ينتظرني فيها من الآلام ، وطليلة لما ينتظرني وراء البحر من الشر .

وصدقني أيها الأخ العزيز . إنني لأدنو الآن من فرنسا خائفاً وجللاً شديد الشاؤم ، لا أنتظر خيراً ولا نجاحاً ، وإنما أنتظر شرّاً كثيراً وإخفاقاً شنيعاً . ولو طاوعت نفسي لما استقررت في مرسيليا إلا ربّما آخذ السفينة التي تردني إلى مصر . ولكن ماذا يقول الناس ؟ وماذا أقول لنفسي ؟ وكيف ألتقي غيرك من الأصدقاء المخلصين ومن الأعداء الشامتين ؟ وماذا أقول لأهلي وماذا أقول لحميدة ؟ أمضي في فراقها ؟ ولماذا وأنا لم أفارقها عن قلسي ولا عن بغض ؟ أم أعود إليها نادماً بائساً

معتذراً مستغفراً ؟ ولكن أسمع لى ؟ أتعطف على ؟ ثم ما نفع هذا الحديث الذى هو بالهديران أشبه منه بالجد ؟ إن السفينة لتضى أمامها لا تلوى على شىء ، ولن تقف حتى تبلغ مرسيليا . ولو أردت أن أقفها لما بلغت من ذلك شيئاً مهما يكن إلحاحى وصياحى ، ومهما أتخذ من وسيلة عند القطبان . وإنما حياتنا كهذه السفينة تمضى بنا إلى حيث يريد القضاء لا إلى حيث نريد . ومهما نلح ، ومهما نصح ، ومهما نتخذ من وسيلة ، فلن نقف حركتها ولن نردها إلى وراء ، ولن ننتقى الانتهاء إلى هذه الغاية التى رسمها لنا القضاء . فلأمض إذاً إلى حيث تريد السفينة أن تنهى بى . ومن يدرى ! لعل أعود إليك بعد حين ولم أر باريس ، ولم أختلف إلى السربون ، ولم أشهد أندية اللهو والمتاع . ومن يدرى ! لعل لا أعود إليك حتى آخذ من هذا كله بحظ . وكل ما أستطيع أن أقطع به الآن هو أن هذه السفينة التى تعبر بى بحر الروم ، ستوفى بى من بعد بحر إلى بحر ، كما يقول مسلم بن الوليد . ولكن البحر الذى ستوفى بى إليه ليس هذا ولا ذاك من أولئك الأجواد الذين كانوا يغنون الشعراء ، وإنما هو بحر آخر عريض لا خد لعرضه ، عميق لا آخر لعمقه . هو بحر هذه الحياة الأوروبية المملوءة باللذة والألم ، المفعمة بالخير والشر . فليت شعرى أأرسل فيه أم أطفو عليه ؟

الآن أحس أنى قد أطلت عليك . وإنما يذكرنى بك ويثير فى نفسى الإشفاق عليك من الإطالة هذه الحركات التى أسمعها

تكثر من حولى فى الغرف المجاورة وفى الطريق أمام هذه الغرف ؛
فقد فرغ السفر من لهُم ورقصهم وعادوا إلى غرفهم يقضون فيها
ما بقى لهُم من الليل .
وداعاً يملؤه الحب والود والحزن أيها الصديق ! فما أدري ! لعل
لا أكتب إليك بعد هذا الكتاب .

١٣

أغسطس فى . . .

أحسست كأنى أسمع صوتاً ينادينى من بعيد ، وكأنى أدنو من هذا
الصوت ، أو كأنه يدنومنى شيئاً فشيئاً . واستمر هذا الحس لحظة لست
أدري أطالت أم قصرت ، ولكنى وجدتني قد قربت من الصوت
أو قد قرب الصوت منى ، فإذا هو بين يدى ، وإذا أنا أسمع طرقات
على الباب ، وإذا أنا أصبح دهشاً أو كالدهش بلغنى العربية الشعبية :
« مين ؟ » وإذا الباب يفتح ، وإذا شخص يدخل خفيفاً رشيماً
سريع الحركة ، سريع الكلام ، وإذا هو يقول فى صوت امرأة :
لقد أشفقت عليك ، ولقد حسبت أنك لا تفيق ، وإذا هو يسرع
إلى النافذة فيجذب عنها الأستار ويفتحها ويأذن للشمس بالدخول .
وأنا دهش ذاهل ، أدعو نفسى وأجمعها فتجتمع لى ، وأنظر وأشعر
فإذا أنا فى غرفة الفندق التى أويت إليها أمس حين تقدم الليل .

وإذا الخادم قد أقبلت تحمل إلى طعام الإفطار ، وإذا النهار قد
 تقدم حتى بلغ النصف أو كاد يبلغه ، وإذا أنا أثوب إلى نفسى
 وأذكر من أمرى ما كان قد زاده النوم عنى ، فأعلم أنى قد بلغت
 مرسيليا أثناء الليل أمس ، وأنى كنت متعباً مكثراً ما أرتقت ،
 وأنى ذهبت إلى أول فندق دلنى عليه ذلك الذى حمل أمتعتى ووضعها
 ووضعنى معها فى عربة وأخذ منى ما أعطيته من نقد وقال للسائق إلى
 فندق جنيف . وقد بلغت الفندق بعد الساعة العاشرة ، فلم أقبل
 طعاماً ولا شرباً ، ولم أزد على أن أحببت على ما وجه إلى من أسئلة لم
 يكن منها بد ، وطلبت غرفة آوى إليها ، وأنبت أنى سأسافر من
 الغد إلى باريس ، ثم لم أكد أبلغ الغرفة حتى خرجت من ثياب
 ودخلت فى ثياب ، وأويت إلى السرير مسرعاً أتمنى لقاء النوم وأشفق
 كل الإشفاق ألا ألقاه . ولكنى لم أكد أنزلق فى هذا السرير الوثير
 حتى أحسست راحة وهدوءاً ودعة لم أعهد لها قط . فأين هذا السرير
 الوثير الذى أتقنت تسويته مما ألفت فى دارنا فى ريف مصر ، أو فى
 بيتى فى القاهرة من هذا الفراش الحشن الغليظ . لقد خيل إلى أنى
 لا أنام على شىء أو أنى أنام على فراش من الزئبق . كان جسمى
 يضطرب فى هذا السرير فلا يجد شيئاً يقاومه أو يثبت له ، وإنما كان
 يغمس فى الفراش غوصاً . ولم أكد أطيل التفكير فى هذا ، ولم أكد
 أفرغ للتفكير فى غير هذا مما شغلنى آخر أيامى فى القاهرة وأكثر
 أيامى وليالى فى السفينة ، وإنما أخذت أفقد نفسى قليلاً قليلاً ،

ثم لم أشعر إلا بهذا الصوت الذى كان يدعونى من بعيد والذى لم أكس
أرد عليه حتى فتح له الباب ، وإذا أنا أرى هذا الشخص الرشيق :
والآن وقد دخلت الشمس هذه الغرفة فغمرتها ، وردت على
اليقظة حسى كله وشعورى كله ، وذكرت فى لحظة قصيرة جداً كل
ما أنبأتك به أيها الصديق ، أنظر فأرى الخادم ذاهبة جائية ، تهىء
طعامى على المائدة وتدنى هذه المائدة من السرير ، فأخرج من غفلة
النوم لأدخل فى غفلة الدهول . فأين أنا ؟ وما هذا الحرص على تيسير
الأمور كلها لى ؟ من زعم هؤلاء الناس أنى فى حاجة إلى عنايتهم
هذه الدقيقة ، وإلى رفقهم هذا الغريب ؟ هذا السرير الوثير ،
وهذه الخادم تحمل الطعام إلى وتفتح النافذة وتدنى منى المائدة لأفطر
فى سرى ، أترام ظنوا أنى مريض ! فما أحسب أنهم ظنوا غنياً من
كبار الأغنياء ؛ فما كان وجهى لينبئ بذلك ، وما كان شكلى ليدل عليه .
والفتاة تتحدث ، وتتحدث والحديث ينبعث من فيها حلواً عذباً
رقيقاً ، أحاول الآن أن أتمس له تشبيهاً فلا أظفر بما أتمس ، وإنما
أصور لك الشعور الذى وجدته حين كان يصل هذا الحديث إلى
ويغمرنى فيملؤنى دعة وراحة ولذة وهدوءاً . كنت أشعر كأن إنساناً
يرسل إلى نفحات متصلة من الطيب تأخذنى من كل مكان . وكنت
أحاول أن أرد عليها بعض الحديث فلا أجد إلى ذلك سبيلاً ؛ لأنها
لم تكن تتمكننى من ذلك من جهة ، ولأنى لم أكن أريد أن أقطع
هذه اللذة من جهة أخرى . حتى إذا هيات لى كل شيء ودعوتى

إلى الطعام همت أن تنصرف ، فردّ إلى الرشد ، وثبت إلى نفسى
وسألها متردداً متلهفاً : أين تذهبين ؟ قالت ضاحكة : أذهب إلى
عملى . قالت : وما عملك ومن تكونين ؟ أوليس من عملك أن تمكثى معى
حتى أفرغ من طعامى ؟ قالت وهى تفرق فى الضحك : « أما عملى فهو
هذا الذى رأيت والذى ترى . أما أن أمكث معك حتى تفرغ من
طعامك فليس من عملى وليس إليه من سبيل . وماذا تكون الحال
لو أنى مكثت مع كل من أحمل إليه الطعام من أهل الفندق حتى
يفرغ من طعامه ؟ » . ثم أرسلت إلى نظرة فيها دعاية وإبتسامة يملؤها
الظرف ، ومضت مسرعة لا تمشى على الأرض وإنما تمشى فى الهواء ،
ثم أغلقت من دونها الباب وتركتنى ذاهلاً كالأبله أمام هذا الإفطار
الذى تركته وقتاً غير قصير معرضاً عنه إعراضاً ، ثم ناظراً إليه دون
أن أقدم عليه .

وإنى لنى ذلك وإذا الباب يطرق ، فأذن فتدخل الفتاة نفسها
قد أقبلت تحمل آنية الطعام . فإذا رأت كل شىء كما تركته منذ حين
سألتنى دهشة عن أمرى ، فأسرع إلى الطعام ضاحكاً وأنا أقول :
ألم أطلب إليك أن تمكثى معى حتى أفرغ من الإفطار ؟ لقد أتيت
فلم أفطر ، وما أنت ذى تعودين ، فانظرى كيف أسرع إلى الطعام .
وكننت مزمماً أن أسافر مع المساء إلى باريس ، ولكنى لا أدرى
لم غيرت رأيى ، أو لعلى أدرى لم غيرت رأيى ! فقد قضيت فى القاهرة أياماً
ثقلاً وأجهدتنى عبور البحر لكثرة ما فكرت وقدرت ولكثرة ما أرت .

وليس ما يدعوني إلى أن أسرع إلى باريس ؛ فليس الفصل فصل درس ، واللغة الفرنسية موجودة مسموعة حيثما وجهت من أرض فرنسا ، فما يمنعني أن أقیم في هذا الفندق الجميل المترف أياماً أعود نفسي فيه حياة الفرنسيين ، وأخذ نفسي بما لا بد من أن آخذها به من العادات والتقاليد حتى لا أظهر غريباً مضطرباً حين أصل إلى العاصمة ؟ وما يمنعني أن أعود نفسي العذب في مياه البحر على الساحل قبل أن أبعد في السباحة وقبل أن أضطر إلى مصارعة الأمواج الضخام ! لأمكنّ إذاً في هذه المدينة أياماً أستمتع فيها بالراحة وأتمرن فيها على الحياة الجديدة ، وأنعم فيها بدخول هذه الفتاة علىّ تحمل الإفطار إلى إذا أصبحت . فمن يدرى أين يكون مستقرى في باريس ! أأجد غرفة كهذه الغرفة ، وسريراً كهذا السرير ، وفتاة كهذه الفتاة تحمل إلى الطعام في كل صباح ؟ وهذه المدينة وسط بين الجو الأوربي الخالص والجو الإفريقي الخالص ؛ فهي على البحر الأبيض المتوسط ، وفي الانتقال الفجائي من جو إلى جو خطر على صحة الجسم ، وقد يكون فيه خطر على صحة النفس أيضاً . فلأصطنع الأناة ، ولأدع هذه العجلة فإنها لا شك من الشيطان . وما يمنعني أن أستأنى وقد تركت مصر وجعلت من بينها وبينى بجرّاً عريضاً ، فلست أخاف على البعثة ، ولست أخشى أن أرد عن باريس .

وكذلك خلقت لنفسي أيها الصديق من التعلات والمعاذير ما أقنعني بأن الإسراع إلى باريس خطئ وحق ، وما حملني على أن أنبيئ

أصحاب الفندق بأنى ساقم أياماً ، وعلى أن أقدم على الكذبة الأولى
فى جياىى الجديدة فأكتب إلى مراقب البعثة بأنى متعب محتاج إلى
الراحة ، وبأنى سأبلغ باريس بعد أسبوع .

والغريب أنى قضيت النهار هادئاً مستريحاً ، لا أكاد أفكر فيما
تركت ولا فىمن تركت ورأى قبل أن أعبر البحر ، ولا أكاد أشعر
بشئ من هذا الألم أو هذا الندم اللذين كانا يثقلان على فى السفينة ،
واللذين صورتهما لك تصويراً مخيفاً فى آخر كتبى إليك ، واللذين
كنت أظن أنهما سيلزمانى لزوم الظل . لم أكد أشعر بشئ منهما :
ماذا أقول ! بل لم تراءى لى صورة حميدة إلا مرتين أو مرات قليلة .
وكانت تراءى لى من بعيد شاحبة الوجه كاسفة البال بادية الحزن ،
ولكنى كنت أراها مسرعة كأنها لا تريد أن تقف عندى ولا أن
تثبت لى .

وهأنذا أكتب إليك الآن بعد أن عدت إلى غرفى وقد كاد يبلغ
الثليل نصفه ، ونظرت فإذا الغرفة قد هيئت لاستقبالى ، وإذا السرير
قد هيئ لإيوائى ، وإذا دورق من الماء وكوب قد وضعا على هذه
المائدة الصغيرة التى تلى السرير . ما شاء الله ! ما تعودت مثل
هذه العناية . ولقد كان الظمأ يوقظنى فى الريف ، ولقد كان الظمأ
يوقظنى فى القاهرة ، فما كنت أجدر إلى اتقائه سبيلا إلا أن أتكلف
النهوض والسعى إلى حيث وضعت هذه الجرار الصغيرة التى كانت
تبرد لنا الماء . فأما الآن فإن الظمأ يستطيع أن يهجم على وأن يوقظنى ،

فسأعرف كيف أردته ردياً ، وكيف أعود إلى النوم كما خرجت منه
لا أجد في ذلك جهداً ولا عناء .

على أنى لم أكد أرى هذا الدورق وأفكر فيما كان يعتادنى من الظماً
في مهبّ حتى أحسست الظماً ؛ فأصب شيئاً من الماء أحسوه في
هدوء . ولكن ماذا ! إنه لا يرد عني ظماً ولا ينقع لي غلة ، وإنى
لا أجد له لذة حين أحسوه ، ولكنى أذكر قصة الأخطل وحديثه حين
عرض عليه الماء في مجلس عبد الملك فقال : شراب الحمار .

ولست حماراً يا سيدى مهما يكن رأيك فيّ وفي ذلك الشيخ ،
أو قل كنت حماراً قبل أن أعبر البحر ، فلما دخلت هذا الفندق ،
وصعدت إلى هذه الغرفة وأويت إلى هذا السرير ، وانغمست في
فراشه الوثير ، وأدركنى ما أدركنى من النوم العميق ، وأيقظتنى هذه
الفتاة ذات الوجه المشرق والشعر المضيء والحديث الحلو والروح
الخفيف ، نظرت فإذا أنا لم أبق حماراً ، وإذا أنا قد مسخت إنساناً
أو قل صورت إنساناً إن كانت كلمة المسخ لا ترضيك ، ولكنى على
كل حال قد دخلت النوم حماراً وخرجت منه إنساناً يحس ويشعر
ويعقل ويدوق لذة الجمال ويعرف كيف يستمتع بسحر العيون .
أصبحت إنساناً ، وذكرت قصة الأخطل ، ففغت شراب الحمار ،
وآليت لا أرد الظماً إلا بمثل ما رده به الأخطل . ولا تغضب يا سيدى
ولا تثر ؛ فأنا في بلد قلما يشرب أهله الماء . ولقد شهدت غداء الناس
وعشاءهم ودهشت حين سألتى الخادم ماذا أريد أن أشرب ، فلما

طلبت إليه الماء أظهر دهشاً لم يكن أقل من دهشى حين ألقى على سؤاله . ثم أقبل على بالماء ، وبعد لحظة حلق النظر في ، ثم قال : ألا يريد سيدى شيئاً من النبيذ ؟ . فلما أبيت قال متبسّطاً في لغة أهل الجنوب وطمحتهم : « سيدى مخطيء فالماء لا ينقع الغليل هنا » . ثم انطلق وعاد إلى بعد لحظة ومعه دورق فيه نبيذ . ونظرت فلم أر الماء في حجرة الطعام كلها إلا على مائدتى ، فاستحييت وشربت كما يشرب الناس . وكنت أحسب أن الخادم إنما يرغبنى في النبيذ ترويجاً لتجارة الفندق ، فلما فرغت من طعامى عرفت أن الناس يشربون النبيذ في هذا الفندق كما يشربون الماء لا يدفعون له ثمناً ، أو هم يؤدون ثمناً فيما يؤدون من ثمن الغداء والعشاء . آليت إذاً يا سيدى ألا أرد الظلم بشراب الحمار ، وأزمعت أن أدفعه بهذا الشراب الذى لم أنتظر قدومى إلى فرنسا لأعرفه وهو البجعة ، فأدق الجرس وأنتظر أن يطرق الباب وأن يفتح وأن تدخل على هذه الفتاة . ومن يدرى ! لعلى لم أزد الماء ولم أفكر في قصة الأخطل ولم أبتغ هذا الشراب الحرام إلا تعلقة لأدق هذا الجرس ، ولتدخل على هذه الفتاة ، وليكون بينها وبينى طرف من حديث يقصر أو يطول . فقد جعلت أتهم نفسى في كل ما آتى وفى كل ما أريد منذ استيقظت ظهر اليوم . وإنى لأتبين أن منظر هذه الفتاة وعدوبة حديثها وخفة روحها وحسن خدمتها ودخولها على مع الصبح وإذنها للشمس أن تغمر غرفى ، كل هذا هو الذى بطأنى . عن باريس وحبب إلى المقام في هذا الفندق .

فأنا إذا فكرت أو قدّرت أو هممت أو فعلت ، أسأل نفسي لعل من وراء هذا التفكير والتقدير ولعل من وراء هذا الهم والفعل غرضاً خفياً غير ما توخيت من الأغراض الظاهرة . والباب يطرق وأنا أعلن الإذن بصوت مرتفع تظهر فيه الלהفة وقليل من الاضطراب . والباب يفتح ، ولكن ماذا أرى ! أرى رجلاً شاباً قد أقبل فاتراً متثاقلاً وقال فى صوت خافت يملؤه الكسل والسأم والضيق : سيدى يريد ؟ قلت وأنا أتكلف كظم ما يملؤنى من الغيظ وإخفاء ما لا أشك فى أنه ظهر على وجهى وفى عيني من خيبة الأمل ، قلت وكأنى ألقيت فى وجهه ما قلت إلقاء : أريد زجاجة من الجعة . قال : نعم صغيرة أم كبيرة ؟ قلت مغضباً : أكبر ما عنلك . ثم انصرف عني وعاد إلى بزجاجته وقدحه . فلما هم أن ينصرف قلت : فقد أحتاج إلى أخرى ، وما أحب أن أشق عليك حين يتقدم الليل . قال مبتسماً : إن سيدى لطريف ، ولكن عندي ما يريد سيدى . ثم مضى وعاد بإناء فيه الثلج وفيه زجاجة أخرى من الجعة ، وتمنى لى ليلاً سعيداً ، وأغلق من دونه الباب . ولعلك تنكر أيها الصديق لإقبالي على الشراب ، وعلى الشراب خالياً ، وعلى الشراب بعد أن كذب الظن وخاب الأمل . ولكن ما رأيك فى أن كذب الظن وخبية الأمل ، هما اللذان دفعاني إلى الشراب دفعاً ؛ فقد وجدت على الحظ وسخطت على الزمان ، وأبيت أن أذعن لمكر الأقدار وغدر الظروف ، وأقسمت لا أذوق النوم حتى أرى وجه هذه الفتاة المشرق وثغرها المضىء وأسمع حديثها الحلو وأستمع بروحها

الخفيف . وأى شيء أعون لى على السهر من الشراب والتفكير فيها
والكتابة إليك ! لا تغضب ، فما كنت لأكتب إليك لولا أن أخلف
الحظ ظنى وكذب أملى ، واضطرنى إلى أن أستعين بك على الليل فى
مرسيليا ، كما كنت أستعين بك على الليل فى القاهرة . لا تغضب ،
فقد عرفتنى أوثر الصدق على الكذب ، وأكره أن أغشك أو أخنى عليك
ما أجد . ولو خيرنى الحظ بين زيارة هذه الفتاة لحظة قصيرة تهدأ لها
نفسى الثائرة وتستقر لها خواطرى المضطربة ، ثم آوى إلى السرير
لأنام ، وبين لقائك أو الكتابة إليك ، لما ترددت فى أن أرحى لقاءك
والكتابة إليك إلى غد حين يشرق النهار وتملك النفس صوابها كله
وأمنها كله ، ويفكر العقل فى غير فتور ولا قلق ولا اضطراب . ما أظن
أنك سترضى عن هذا الكتاب ؛ فليس فيه شيء يرضيك ، وليس
فيه شيء يرضينى . وما كتبت إليك لأرضيك ولا لأرضى نفسى ،
ولنما كتبت إليك انتظاراً لمطلع الشمس .

ما أسرع ما تتغير نفس الإنسان ! بل ما أسرع ما تغيرت
نفسى ! فصدفتنى أنى أنكرها أشد الإنكار ، ولا أكاد أصدق أن
هذه النفس التى كانت هائمة بحميدة . محزونة بل جزعة لفراقها ،
نادمة أشنع الندم وأبشعه على ما قدمت إليها من مساءة واقترفت فى
ذاتها من لائم — لا أكاد أصدق أن هذه النفس التى لم تكن تذوق
النوم إلا غراً « مثل حسو الطير ماء النماء » كما يقول شاعرك القديم ،
قد نسيت أو كادت تنسى حميدة وفراقها وطلاقتها ، ومجيت منها أو

كادت تمحى صورة حميدة قائمة فى غرفتنا تلك تنهل دموعها الصامته .
لقد كانت هذه الصورة تؤرقنى الليل ، وتنغص على النهار ، ويملاً
سنوحها لى قلبى فرقاً وذعراً . فأنا الآن أنتظرها فلا تسبح لى ، وأدعوها
فلا تستجيب لى ، وألح فى الدعاء وفى الاستحضار فأتمثلها شاحبة واجهة ،
وكأنى أستحضر روحاً من أرواح الموتى . وهى لا تثبت بعد أن أجهد
نفسى فى دعائها واستحضارها ، وإنما تمر بى مرأى سريعاً كأنها الطيف .
كيف انتقلت من طور إلى طور ؛ وكيف تغيرت من حال إلى
حال ! أكننت خيراً فأصبحت شريراً أم كنت شريراً أتكلف الخير ،
فلما بلغت هذا البلد ألقيت عن نفسى أعباء التكلف وأثقاله وظهرت
لنفسى كما أنا ، لا متحفظاً ولا منافقاً ؟ أم ماذا ؟ إنى لى حيرة
لا أعرف لها حداً ، ولكنى على ذلك كله راض عن نفسى بعض
الرضا ، بل كل الرضا . أترى أنى أسأت حين قطعت ما بينى وبين
حميدة من الأسباب ؟ هبنى لم أفعل ، أفكان ما بينى وبين حميدة من
الصلة يعصمنى من الشر الذى أنا مدفوع إليه ، أم كنت أدفع إلى
الشر دفعاً وأقترب الإثم اقترافاً لا أحفل بحميدة ولا بحبها ولا بهذا
العهد المؤكد الذى قطعته لها بالوفاء ؟ فأنا مدفوع إلى الشر ما فى
ذلك شك ، وأنا عاجز عن المقاومة ، وأنا أسأل نفسى دون أن ألح
عليها فى السؤال : أليس يمكن أن تكون هناك قوة خفية ماهرة قد
دفعنى إلى ما وراء البحر لألقى فى هذه الأرض الغريبة كيداً
يدبر وأمرأى يراد ، ولا يكون نهياً لبشيطين الإثم والغواية والفساد ؟ أنا

التقى على نفسه هذا السؤال منذ رأيت هذه الفتاة ففتنت بها ،
ولكنى أكره أن أطيل التفكير فيه مخافة أن يثوب إلى الرشد وأن أرد
إلى الصواب من أمرى ، وأن أثبت ما أنا مقدم عليه . ولست أريد
أن أثبت ما أنا مقدم عليه الآن ، وإنما أريد أن أثبت الشر إن كان
هناك شر بعد أن أتورط فيه . لماذا ؟ لست أدري . ولكنى لست
أستطيع أن أقف ولا أن أتأخر ، إنما أنا شئء قدفت به قوة عنيفة من
قمة الجبل فهو يتدحرج على السفح لا يستطيع أن يمسك نفسه ولن
يستطيع أن يمسك نفسه ، حتى يبلغ الحضيض فتمسكه الأرض
السهلة المستوية . أكنت مملحاً في طلب البعثة رغبة في العلم الذى
كنت أزيهه لنفسى ، أم رغبة في هذه الأبواب من الفتنة التى لم أكن
أستطيع أن أستفتحها فى مصر ، والى لست أحتاج أن أستفتحها فى
فرنسا لأنها تفتح لى وحدها ؟

ماذا أقول أيها الصديق ! أترانى جننت أم ترانى سكرت ؟ كلا !
لست مجنوناً ولا سكران . وهاتان الزجاجةتان لم أمسسهما ، وإنى لأثبت
كل ما حولى ، وإنى لأعرف أنى أكتب إليك ، وإنى لأستطيع
أن أثبتك من أمرنا بما لا يحسن المحانين أن ينبثوا به . ولست مجنوناً
ولا سكران ، ولكنى عاقل محكم العقل واضح الرأى صافى الذهن .
أنظر فى المرأة فأرى نفسى منكورة بشعة ، وأحجل منها حين أنظر
إليها أكثر من نخجل منك حين أكتب إليك . نعم لست مجنوناً
ولا سكران ، ولكنى رجل يزدرى نفسه أشد الازدراء وبمقتها أبشع

المقت . وكيف تريدني على ألا أزدري نفسي وأنا لا أكاد أرى خادماً
مبتدلة تحمل إلى الطعام وتبسم لي وتتحدث إليّ ، كما تحمل الطعام
لعشرات من أمثالي وتبسم لهم وتتحدث إليهم ، بالصوت نفسه وباللهجة
نفسها وبالذعابة نفسها ، لا أكاد أراها مع هذا كله حتى يجن بها
جنوني ويفتن بها قلبي ، وأرجى من أجلها الرحلة إلى باريس ، وأقضى
من أجلها الليل مسهداً أرقاً ، أستعين على انتظارها وعلى انتظار الصباح
بالكتابة والشراب !

لست مجنوناً ولا سكران ، بل لست أدري من أنا ولا ما عسى
أن أكون . لقد زعمت لك منذ حين أني كنت خماراً قبل أن أعبر
البحر فردتني هذه الفتاة إنساناً . فصدقني ! إنني لا أرى نفسي إنساناً !
ولا أعرف من أي نوع أنا بين الأنواع الخبيثة الدنيئة من الحيوان .
إلى اللقاء أيها الصديق ! لا أحب أن أطيل في هذا الحديث
فإنني أخشى أن أخرج من طوري ، وأن أدفع إلى هذا الجنون الذي
أنكره وأبرأ منه .

إلى اللقاء ! لو أني عقلت وأحكمت أمري لانصرفت عنك إلى
هذا السرير الذي يدعوني إلى الراحة والنوم . ولكني أعلم حق العلم أني
لن أستريح ولن أنام ، وأنني سأقضي الليل إن أويت إلى فراشي لعبة
لصورتين مختلفتين أشد الاختلاف ، إحداهما تخيفني حتى تبلغ بي
أقصى الخوف ، والأخرى تغريبي حتى تنهي بي إلى غاية الإغراء .
إحداهما حميدة البائسة ، والأخرى هذه الفتاة الخادم التي لا أعرف من

أمرها شيئاً إلا أنها جميلة رشيقة حلوة الحديث خفيفة الروح ، تحمل
الطعام وتبسم للأضياف . كلا ! كلا ! إني لأكذب عليك وأكذب
على نفسي . إني لأعرف من أمرها أكثر من هذا قليلاً : إن اسمها «فرند» .
إلى اللقاء أيها الصديق ! لأشغلن نفسي عنك وعن هاتين الصورتين
بمصارعة هاتين الزجاجتين ، فلما أن تصرعاني فأستريح حتى توقظني
هذه الفتاة من الغد ، ولما أن أضرعهما فليس الجرس ببعيد . وما على
إذا أزعجت الخادم وكلفته أن يحمل إلى زجاجة أو زجاجتين !

إلى اللقاء !

أكتوبر فى

ليست الحياة لعباً أيها الصديق ، أو قل ليست الحياة كلها
لعباً . والجنون مباح على أن يكون قليلاً ، فإن طال فصير صاحبه إلى
مستشفى المجانين . وقد أشفقت أن يطول جنونى ، وقد أشفقت أن أدفع
إلى هذا المستشفى ، ولكنى أفقت بعد لآلى ورشدتُ بعد غى ، وكان
أول ما لقيته فى فرنسا شراً ، ولكنى أرجو ألا أستقبل فيها منذ اليوم
إلا خيراً متصلاً .

أنا أكتب إليك من باريس بعد أن أقمت فيها إقامة المستقر
لا إقامة الزائر الملم . فستبدأ الحياة الجامعية بعد أيام ، ولا بد من
الانتساب إلى الجامعة والاختلاف إلى الدروس ، وإلا رددت إلى
القاهرة أشنع رد . وكيف ألقاك ! وكيف ألقى أصحابنا ! وكيف ألقى
أهلى وأصحابى فى الريف ! وماذا أقول للناس ! وماذا أقول لصورة

حميدة إن عرضت لى فسألتنى ماذا أفدت من المكث فى باريس أوفى
غير باريس من مدن فرنسا ! وماذا أقول لصورة حميدة إن سألتنى
ماذا جنيت من هذا الطلاق الذى أقدمت عليه فى غير أناة ولا رشد
ولا تفكير !

نعم ! لابد من الانتساب إلى الجامعة والاختلاف إلى الدروس
وإرضاء الأساتذة الذين لا أعرفهم ، وإرضاء مراقب البعثة الذى أعرفه
وأحبه أصدق الحب وأقواه ، وإرضاء نفسى التى لا أدرى أأوفق إلى
إرضائها أم أعجز عنه ! فإنها بعيدة الطمع شديدة السخط على منذ
عبرت البحر .

لابد من الانتساب إلى الجامعة ، والاختلاف إلى الدروس ،
وإرضاء مراقب البعثة لأظفر بثقته واحترامه ! فأنا فى حاجة شديدة
إليهما ، وأنا لم أظفر منه إلى الآن إلا بالعطف والبر والإشفاق بعد السخط
الذى ليس فوقه سخط والغضب الذى لا يشبهه غضب . فقد كلفته من
المشقة ما لم يكلفه أحد من قبلى ، وقد حملته من الجهد ما لم أحمله أحداً
من قبله . فلم تكن هذه الأسابيع التى أنفقتها فى فرنسا ناعمة ولا راضية ، ولم
يكن يملؤها الهدوء والاطمئنان ، وإنما كانت أسابيع بؤس وجنون وشقاء
ومرض أيضاً . واكتسب على ! فإن أحداً من المصريين فى باريس لم
يعرف مما أصابنى شيئاً ، وأنت أول من يعرف قليلاً من أمرى بعد
مراقب البعثة ، هذا الصديق الفرنسى الذى يعرف من أمرى كل شئ ،
ويكتم من أمرى كل شئ ، ويعنى بأمرى عناية الأخ الحب الرفيق ،

والذى استطاع أن ينقلنى من فساد لا حد له إلى صلاح أرجو ألا يكون له حد .

أنا أكتب لك من باريس بعد أن أقمت فيها إقامة الساكن المستقر لإقامة الزائر الملم . فقد زرت باريس فى الصيف ، ولكنى لم أقم فيها إلا يومين اثنين لقيت فيهما مراقب البعثة وعرفته بنفسى ، وقلت له وسمعت منه ، ثم استأذنته فى أن أترك باريس حتى ينقضى الصيف . ولم ير بذلك بأساً ، ولعله رأى فيه خيراً ! فقد كان يجب ألا ألقى المصريين لأول عهدى بفرنسا ليصح تمرينى على اللغة ويحسن حديثى إلى أهلها وفهمى عنهم . وقد زعمت له أنى أحب أن أعود إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط لأن جوه قريب من جو مصر ، فلم ينكر ذلك ولم ير به بأساً ، ولكنه نهانى عن مرسيليا وزين لى مدينة قريبة منها على ساحل البحر أيضاً هى مدينة « كان » . فأظهرت الطاعة له والقبول لرأيه . والغريب أنه منحنى أجر السفر على حساب الجامعة للذهاب والإياب . وتركته وتركت باريس ؛ ولكنى لم أذهب إلى « كان » ولم أنزل فى الفندق الذى سماه لى من فنادقها إلا بعد أن مررت بمرسيليا . . وأقمت فى فندق جنيف أياماً . واستوثقت من أنى لن أكون وحيداً فى « كان » .

ولم لا ؟ إن لفرنند وإن كانت خادماً الحق فى أن تستريح وتصطاف كما يستريح السادة ويصطافون . وما يمنعها أن تستريح وتصطاف أسبوعين حيث أستريح أنا وأصطاف ! !

وكذلك لم أسافر من مرسيليا إلا بعد أن قدّمته بين يدي إلى « كان » في قطار الصباح ، ولحقت بها في قطار من قطارات المساء ، ولا تسل بعد ذلك عن هذه الأيام الحلوة المرة ، المشرقة المظلمة ، التي قضيتها في هذه المدينة مع فرزند في أول الأمر ، ثم وحيداً بعد أن آن لفرزند أن تعود . ولا تسل عما جنته على هذه الوحدة من السيئات والآثام ! فأنت أكرم على وأحب إلى من أن أقص عليك تفصيلها المنكر البشع . وأنت لا تقرأ كتبى بنفسك ، وإنما يقرؤها عليك غلامك الأسود الصغير . وحسبك أن تعلم أنى رجعت إلى باريس متعباً مكدوداً . أستغفر الله ! بل مريضاً مشرفاً على أعظم الخطر وأشدّه نكراً . ولولا مراقب البعثة لما برئت . وإن له عندي ليداً ما أعرف أنى أستطيع مكافأتها إلا بالجد الذى يرضيه . ولأبلغن من هذا الجهد ما أريد وأكثر مما أريد .

لا تغضب إن انقطعت عنك كتبى ! فما أظن أنى سأفرغ للكتابة إليك قبل أن يمضى وقت طويل .

١٤

وكان طويلاً حقاً هذا الوقت الذى انقطعت عنى فيه رسائل صاحبى . وقد كنت أقدر أنه ستركنى سهراً أو شهرين . وكنت أظن أنه لن يستطيع أن يبلغ هذا الأمد دون أن تشور به خواطره هذه الغريبة فترده

إلىّ يلتمس عندى شيئاً من الأمن وراحة النفس واستقرار الضمير .
ولكن الأسابيع مضت في إثر الأسابيع ، وانقضت الأشهر في أعقاب
الأشهر ، دون أن ألتقى من صاحبي كتاباً أو شيئاً يشبه الكتاب .
والغريب أنه لم يُعرض عن الكتابة إلىّ وحدى ، وإنما انقطعت عن
أصحابنا هذه الحمل القصار التي كان يرسلها إليهم على بطاقات البريد ،
وانقطعت أخباره حتى عن أهله في الريف . فكثيراً ما كتب إلىّ أبوه
الشيخ يسألني أوصل إلىّ من أبناء ابنه شيء ، فكنت أرد عليه بأن
ابنه في باريس على خير حال ، يختلف إلى السربون ، ويرضى
أساتذته ، ويرضى مراقب البعثة ، ويرضى الجامعة المصرية عنه أحسن
الرضا . ولم أكن أعله بالأمانى ولا أقول له غير الحق ، وإنما كنت
أسأل عن صاحبي في إدارة الجامعة ، وأعرف منها أنه بخير وأنه يجد
في الدرس جداً غير مألوف ، ويظهر من التفوق ما لم يألفه الأساتذة
الفرنسيون من الطلاب المصريين . ولم أكن أجد في هذا غرابة !
فقد كنت أعرف من ذكاء صاحبي الشاذ واستعداده النادر ما لم
يكن يعرف غيرى من الذين اتصلوا به وخالطوه . وكانت هذه الأنباء
تكفيني وترضيّني ، وتقوم له بالعذر عندى عن انقطاع رسائله عني ،
وتملأ نفسي حباً له وإعجاباً به وشوقاً إليه وحرصاً على أن يتاح لي
ما أتيح له من الحظ فأعبر البحر كما عبه . ولكني كنت أقسم لأن
بلغت مرسيليا لأجتنب المقام فيها إلا ريثما يحملني القطار إلى باريس .
وكثيراً ما كنت أسخر من نفسي حين كان يخطر لي هذا الخاطر .

لماذا أخاف من مرسيليا ! وماذا أخاف من فندق جنيف ! وماذا أخاف من فرنند وأمثال فرنند ! وما أنا وهذه الفتن التي لم تصل الأيام بيني وبينها سبباً ، ولم تجعل الأيام لها على نفسي سيلاً ؛ وما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقاً في الدرس والتحصيل أتأهب لامتحان الأزهر الذي أخفقت فيه إخفاقاً بشعاً ، وأتأهب لامتحان الجامعة الذي نجحت فيه نجاحاً حسناً ! ثم ما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقاً في أدب أبي العلاء وفلسفته ، متمثلاً لهذه الفلسفة ، متكلفاً لتشاؤم شيخ المعرة ! وكثيراً ما كنت أخدع نفسي وأغرها ، وأزعم لها أني سأذهب إلى باريس كما ذهب أبو العلاء إلى بغداد . ومن يدرى ! على أعود من باريس ، كما عاد أبو العلاء من بغداد ، فألزم قرية من القرى وأقيم فيها لا أريم . ولم أكن في حاجة إلى أن أطلب إلى أهل هذه القرية كما طلب أبو العلاء إلى أهل المعرة ألا يكلفوه أن ينفر معهم من القرية إذا أغار عليها الروم ! فلم أكن أخشى أن يغير الروم على قريتي في أدنى الصعيد أو أقصاه . وكذلك كنت مشغولاً بجذ الدرس وغرور الشباب عن هذه الفتن التي تعرض لها صاحبي ، فأفسدت عليه خلقه ودينه وصحته ، وكادت تنهي به إلى الموت . ثم ينقضي العام ويتقدم الصيف ، وإذا الأنباء تأتي من باريس بأن صاحبي قد فعل الأعاجيب ، فأتم في عام واحد ما لا يتمه غيره في أعوام ، وتقدم إلى امتحان ذي بال ففاز فيه وفاز بتهنئة الأساتذة أيضاً . وهو مع ذلك لا يكتب إلى ولا يفكر في . وقد كنت أظن أن

فوزه في الامتحان وفراغه للراحة سيردانه إلى صديقه لحظات قصاراً أو طوالاً .
ولكن الصيف كله ينقضى وأنا ألح عليه بالكتب فلا أظفر منه
بشيء . حتى إذا كان شهر أكتوبر تلقيت منه هذه الأسطر :
أكتوبر في

إنك تنتظر أن أكتب إليك لأصف لك حياتي في باريس .
وما كان أحب إليّ أن أفعل ! ولكن حياة باريس لا توصف في
الكتب والرسائل ، ولا سبيل لك إلى أن تعرفها مقارنة إلا إذا حييتها .
على أنني أحب أن أصور لك شعوري في باريس تصويراً مقارباً غير
دقيق . ولن يكون هذا التصوير بكلام أكتبه إليك ، فالكلام كما
قلت لا يغني في باريس شيئاً . ولكن اذهب إلى الأهرام ، فها أظن
أنك ذهبت إليها قط ، وانفذ إلى أعماق الهرم الكبير ، فستضيق فيه
بالحياة وستضيق بك الحياة ، وستحس اختناقاً وستعجب جسمك
عرقاً ، وسيخيل إليك أنك تحمل ثقل هذا البناء العظيم ، وأنه يكاد
يهلكك ، ثم اخرج من أعماق هذا الهرم واستقبل الهواء الطلق الخفيف ،
واعلم بعد ذلك أن الحياة في مصر هي الحياة في أعماق الهرم ، وأن
الحياة في باريس هي الحياة بعد أن تخرج من هذه الأعماق . واجتهد
في أن تتم ما بقي لك من درس في القاهرة ، وتؤدي ما بقي لك من امتحان .
واجتهد أيضاً في أن تستبق رضا الذين يحبونك ويشجعونك ويريدون
أن تتم درسك في باريس . وأسرع إلى باريس متى استطعت فإني
أنتظرك فيها ، وما أكثر ما سيكون بينك وبينى من الأحاديث !

وتنقضى السنة الدراسية كلها لا يصل إلى فيها من صاحبي كتاب ولا نبأ . وإنما أسأل عنه في الجامعة كما كنت أسأل في العام الماضي ، فأعرف من أنبائه كما كنت أعرف في العام الماضي أنه مقبل على الدرس في نشاط وتفوق ، وقد أخذ يدرس اللاتينية بعد أن أحسن الفرنسية إحساناً لا بأس به . وأنا أكتب إلى أبيه الشيخ بما أعرف من أنبائه وأتحدث بها إلى أصحابنا ، حتى أصبح اسمه بيننا رمزاً للجد في العمل وللتوفيق في الحياة .

وقد تهيأت لي أسباب الرحلة إلى فرنسا على خير ما كنت أحب . وإني لأستعد للرحيل متنقلاً لذلك بين القاهرة والصعيد ، وإذا الحرب الكبرى تعلن ، وإذا كل شيء يتغير في حياة الأفراد والجماعات ، وإذا رحلتى تؤجل ، وإذا أنا مضطر إلى أن أقيم في القاهرة بائساً محزوناً سيئ الحظ خائب الأمل . وتأتى الأنباء بأن الطلاب المصريين قد هجروا باريس كما هجرها كثير من الفرنسيين ، وكما هجرتها الحكومة الفرنسية نفسها حين دنت منها جيوش العدو . ولكنني أتلقى من صاحبي هذا الكتاب :

أغسطس في

لقد زلزلت الأرض زلزالها ، واضطرب فيها كل شيء وكل لإنسان

أيها الصديق ، وما أحاول أن أصف لك من أمر الحرب شيئاً ، فانت
تقرأ من ذلك في الصحف المصرية والأجنبية ما لا أستطيع أن أبلغه
ولا أن أقاربه . وإنما أكتب إليك محزوناً لأن الظروف لم تهئ لك
الرحلة التي كنت ترجوها وتعقد بها الآمال ، والتي كنت أرجوها وأنتظر
منها خيراً كثيراً . فليس لي بين المصريين المقيمين في باريس صديق
آنس إليه إن سرتني الحياة ، أو أستعين به إن ساءتني . وإنما نحن
قوم متخاذلون متنافسون ، يبغض بعضنا بعضاً ، ويمكر بعضنا
ببعض ، ويكيد بعضنا لبعض في كل شيء ولسبب ولغير سبب .
قد طوى كل واحد منا نفسه عن أصحابه ، فجهل كل واحد منا من
أمر أصحابه كل شيء إلا هذه الأمور الظاهرة التي ليس إلى جهلها
من سبيل . فنحن نعرف من يختلف إلى السوربون في مواظبة ، ومن
يزورها لماماً ، ومن ينفق يومه في البيت وليله في القهوة . ونحن نعرف
من يعبت مع هذه الفتاة من بنات الغنى ، ومن يدور حول هذه الفتاة
من طالبات العلم . ونحن نعرف من تفسد عليه الغواية حياته كلها ،
ونعرف من يلهيه تتبع الطالبات في غير نفع عن الدرس والتحصيل .
ونحن نعرف من يكتب إلى أهله بالكاذب ويخدعهم بالأمانى ،
ويستخلص منهم المال بالحق والباطل ، وينفق حياته كلها في اللهو
واللعب . ونحن إذا لقي بعضنا بعضاً لم نتحدث إلا في هذا ، ولم
نستعن بأنفسنا إلا بهذا . وأظنك تعلم أن ليس لي في شيء من هذا
أرب ولا لذة . فأنا وحيد بين المصريين في باريس وإن لم أكن وحيداً

بين الفرنسيين ؛ فقد اتخذت لى منهم أصدقاء أحبهم ومحبوبنى وآمن لهم ويأمنون لى . ولكنى ألاحظ أن لى نفسين : نفساً تأنس إلى الفرنسيين ، وتجذ اللذة فى عشرتهم وأحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه من الجلد واللهو ، ونفساً أخرى مشوقة أبداً ، ملتاعة أبداً ، تحب أن تسمع صوتاً مصرياً صادقاً ، وأن تأمن إلى قلب مصرى صادق . على أنى قد حرمت لقاء المصريين والفرنسيين جميعاً . فأما أولئك فقد فروا بأنفسهم من الموت الذى يقال إنه قد يغزو باريس . وأما هؤلاء فقد دفعوا بأنفسهم دفعاً إلى لقاء الموت ليردوه عن باريس . وقد أنفت أن أفر مع أولئك ، وضعفت أن أنفر مع هؤلاء ، وآثرت موقفاً لا أحده لنفسى ولا ألومها عليه وهو موقف الانتظار . وما أرى إلا أنى سأخرج من هذا الموقف كارهاً إن استطاع الموت أن يقتحم ما أعد له الفرنسيون ليردوه عن هذه المدينة الخالدة ؛ فما أملك حياتى حين يُقدم الموت على باريس . على أنى أجد فى هذه المدينة الخالية التى فر الناس منها ذعراً أو نفر الناس منها حفاظاً ونجدة ، شيئاً من الشعر الرائع لا أستطيع تصويره ، وإنما أستطيع أن أقول إنه يملك على نفسى ويفعم قلبى إفعاماً ، ويحبب إلى هذه الأرض كما لم أحب أرضاً قط .

نعم ! وأجد فى مقامى فى هذه المدينة الخالية لذة لا أدرى كيف أصورها ، وفخراً لا أعرف كيف أصفه . ومع أنى لم أنفر مع الناس فقد يخيل إلى أنى شجاع ؛ فليس جبناً ولا ضعيف القلب هذا الذى لم يفر مع من فر ، ولم يعد إلى مصر فيمن عاد من الطلاب ، ولم

يغير من أمره شيئاً مع أن كل شيء من حوله قد تغير ، وما زال يتغير ، وإنما ظل في مكانه هادئ النفس مطمئن القلب ينتظر الأحداث والخطوب لا خائفاً ولا وجلاً ولا مذعوراً .

ولقد أخذت على نفسي عهداً ألا أبرح باريس مهما تكن الظروف . وستعلم أني سأفي بهذا العهد مهما يكلفني ذلك وإن انتهى بي إلى الموت ، وأي شيء يكون الموت في سبيل باريس ! لقد أبيت أن أكتب إليك في وصفها وفي وصف الحياة فيها ؛ لأن ذلك لم يكن ميسوراً ، ولأنني كنت أرجو أن تقدم على باريس فأظهرك على ما تستطيع أن تظهر عليه من أمرها . وقد تأخر قدومك ، وكنت أحب أن أعُلك بالحديث عن باريس ، ولكنني عاجز حتى عن هذا ، مشغول بالحديث إلى نفسي عن الحديث إليك . فكم لي من ساعات أدخل فيها إلى نفسي حتى تنقطع الأسباب بيني وبين كل شيء ، وبين كل إنسان ؛ والناس مع ذلك حولي يذهبون ويحيثون ويموج بعضهم في بعض . فأنا لا أدخل إلى نفسي هذه الخلوة في بيتي وإنما أدخل إلى نفسي في الحدائق والمتاحف والقهوات حيث يجتمع الناس ويزدحمون . أدخل إلى نفسي أمام تمثال من هذه التماثيل ، أو عمارة من هذه العمارات ، أو معهد من هذه المعاهد التي يستقر فيها الجدل خصباً حافلاً بالنفع والأمل ، لا لأهل باريس ، ولا لأهل فرنسا ، بل للناس جميعاً ، ومنهم هؤلاء العدو الذين يقدمون على باريس ومعهم الموت يريدون أن يصبوه عليها صباً .

نعم ! وأخلو إلى نفسى أمام معهد من معاهد اللهو ، هذه التى تستقر فيها الدعابة فتبعث الفرح فى القلوب جميعاً ، وتبعث الابتسام على الثغور جميعاً ، وتجدد النشاط للعمل وتحبب الحياة إلى الذين زهدوا فى الحياة .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء التى أراها كنوزاً للإنسانية قد حوت خير ما عند الإنسانية من فن وأدب ، ومن فلسفة وعلم ، ومن عمل وأمل ، ومن تفكير وتدبر ، وروية ونشاط .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء ، وأفكر فى أن قوماً يزحفون عليها يريدون بها سوء ، ولا يكرهون ، ولعلمهم يجبون أن يحقوها محقاً ، ويسحقوها سحقاً ، ليغضوا من أمر باريس ، وليغضوا من أمر فرنسا ، دون أن يحفلوا بأنهم إن فعلوا فسيغضون من أمر الحضارة كلها ، وسيعلمون فى القرن المتم العشرين كما أعلن آباؤهم فى أول التاريخ المسيحى أن عهد الحضارة والعلم والفلسفة والتفكير والفن قد آذن بزوال ، وأن الإنسانية قد آن لها أن تستريح من جهدها الخصب العنيف ، وأن تعود إلى هذه الراحة المجذبة التى يملؤها الذل والعقم والهوان .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء ، وأراها قائمة باسمه نصره يملؤها الفخر والتهب ويزدهيها الأمن ، ثم أراها وقد مستها لفحة من لفحات العدو فاستحال ابتسامها عبوساً ونضرتها ذبولاً وكبرياؤها ذلاً وخنوعاً . وإذا أنا مدفوع إليها متصل بها ، فأنا فيها أنعم لأنها ناعمة ، وأبسم لأنها باسمه ، وأبتشس لأنها مبتشسة ، ويدركنى الموت لأنه أدركها .

حرام على فراق باريس حتى أصير إلى مثل ما تصير إليه ، وأخرج معها من الأهل بما تخرج به منها . ولتغضب الجامعة إن شاءت أن تغضب ، ولترض الجامعة إن أحببت أن ترضى ؛ فقد دعت طلابها إلى مصر فعادوا سراعاً . وأكبر الظن أنها ستردهم إلى فرنسا بعد أن تستقر الأمور شيئاً ، ولكنها ستحول بينهم وبين باريس لأن باريس قريبة من الخطر معرضة له دائماً . وسيعود هؤلاء الطلاب وقد تقدم أنت معهم ، وسيتفرقون من أرض فرنسا في حيث يستقر الأمن والسلم ، وفي حيث لا تصل إليكم يد العدو ولا تبلغكم قذائفه . أما أنا فقيم هنا لا أريم ، منتظر هنا مع المنتظرين . ومن يدري ! لعل أخرج من هذا الانتظار إلى العمل . فما ينبغي للرجل الكريم ذى المروءة أن يعيش مع الناس ضيفاً عليهم مستمتعاً بما يمنحونه من الأمن آخذاً بأوفر حظه مما يبيعون له من لذة العقل والقلب والجسم ، حتى إذا أملت بهم الخطوب أو هجمت عليهم الأحداث ، فرّ عنهم مسرعاً لا يلوى على شيء ، أو أقام فيهم جباناً أثراً خانعاً لا ينبغي إلا أن يعيش .

نعم ! ما ينبغي للرجل الكريم ذى المروءة والنجدة أن يسير هذه السيرة . وما كنت أحب للجامعة أن تلقى على طلابها هذا الدرس أو تدعوهم إلى هذه السيرة ، وإنما كنت أحب منها شيئاً آخر . وأنا أعلم أن الجامعة أمينة على حياة طلابها مشتولة إلى حد ما أمام أهل هؤلاء الطلاب ، ولكنني أعلم أيضاً أن الجامعة لا تجير من الموت ، وأن

أهل الطلاب لن يستطيعوا أن يرجعوا عليها إن أملت بطالب من طلابها
علة مهلكة أو عدت عليه عادية لا مرد لها . وهل الحرب إلا بعض
هذه العلل . والعوادي ! وماذا تقدم الجامعة إلى الناس حين تقدم
إليهم هؤلاء الطلاب أساتذة قد فروا حين أقبل الخطر ، وآثروا
الحياة على الموت حين كان الكرم والشهامة والنجدة وعرفان
الجميل ، حين كان هذا كله يزيدهم على أن يسعوا إلى رد الخطر
كما سعى الفرنسيون ، أو يثبتوا لانتظار الخطر كما ثبت أنا ! إنما
تقدم إليهم أساتذة قد فروا من الخير إلى الشر ، ومن الإيثار إلى
الآثرة ومن الكرم والنبيل إلى الذلة والهوان .

وأنا أعلم أنك أيها الصديق تنكر هذا مني ، وتراه جنوناً أو تراه
إسرافاً . ولكن ما رأيك في أنى أرى هذا طبيعياً ، وأصدر عنه حين
أفكر وحين أعمل ، وفي أنى قد رفضت العودة حين عاد الطلاب
الجامعيون ، ورفضت الهجرة حين هاجر الطلاب غير الجامعيين
إلى الأقاليم النائية ، وآثرت البقاء لم أجد فيه مشقة ولم أتكلف له
جهداً . وسينقطع عني من غير شك راتب الجامعة ، ولن أطلب
العون من أهلى ، وما أحب أن تنبههم من ذلك بشيء . وقد أتعرض
للضرر ، وقد أذوق لذة الجوع . وما أرى بذلك بأساً ؛ فإن معي ملايين
سيتعرضون لهذا الضرر ، وسيذوقون هذه اللذة ، وما أحب أن أسعد
وهم أشقياء ، ولا أن أشبع وهم جياع . على أنى لا أريد أن أغلو
ولا أصور لك نفسى في صورة البطل . فلئن نجت باريس من هذا

الشر المحقق ، لأعودن إلى ما أنا فيه من حياة هادئة وادعة . ولئن أملت بها الكارثة لأكونن واحداً من هذه الملايين التى تشقى ، ولكنها لا تصور شقاءها فى الكتب ولا تتحدث به إلى الأصدقاء من وراء البحر ، وإنما تلقاه ثابتة له مطمئنة إليه ، حتى تنفرج عنها الكربة ، وتزول عنها الغمة ، وتنجاب عنها ظلمة الليل . ولعل أظهر ما ترك الحرب فى نفوسنا من الآثار أنها تهون عليها الحياة ، وتزيل عنها هذه الأغشية التى نسجتها الحضارة لها نسجاً من الأثرة وحب اللذة والتهالك عليها ، والطموح إلى الترف ، والحرص على الأمن والاستمتاع بما يبيح من نعيم ، فكل هذا شيء مصنوع متكلف أنتجته الحضارة لإنتاجاً . وليس هو فى طبيعة الحياة ، وإنما طبيعة الحياة أيسر من هذا وأدنى إلى السذاجة . إنما هى حركة ونشاط يعقبهما سكون وخمود . إنما هى هذا الذى نراه فى غيرنا من الحيوان الذى يتبع غرائزه آخذاً من نشاطه بأعظم حظ يستطيعه ، حتى إذا أملت به الكارثة أو تلقاه الموت لم ينظم شعراً ولم يكتب نثراً . وإنما انتظر الموت مذعناً له ، ودخل فى الفناء كما خرج منه ، لم يرد للدخول فيه كما لم يرد الخروج منه .

نعم ! هذا أظهر ما ترك الحرب فى نفوسنا من الآثار . فنحن نتبع غرائزنا أكثر مما نتبع عقولنا . نحن شجعان دون أن يكون لنا فضل فى الشجاعة . ونحن مؤثرون دون أن يكون لنا فضل فى الإيثار . ونحن جبناؤ وأثرون أيضاً دون أن يكون علينا فى الجبن والأثرة لوم .

إنما نُقَدِّم أو نُحْجِم لأننا ندفع إلى الإقدام أو نرد إلى الإحجام ، لا نرى من هذا ولا ذلك بدءاً . ذهبت بالقياس إلينا كل فلسفة ، وانحلت بالقياس إلينا كل قاعدة ، وأرسلت نفوسنا على سجيئها لإرسالها . فنحن ننهز الفرص حين نظفر بها ، ونستمتع باللذة إلى أبعد غاية الاستمتاع حين نتاح لنا ، لا نحاسب أنفسنا ولا نسألها . وفيه الحساب والسؤال ونحن لا نفكر في العاقبة لأن فكرة العاقبة قد محيت من نفوسنا محواً ؛ وما التفكير في العاقبة وما السؤال عنها ، ونحن نراها ساعية إلينا مشرفة علينا ، قد زلزلت الأرض من حولنا زلزالاً ؛ أليست هي في هذا الموت الذى يسعى إلى باريس ويوشك أن يبلغها غداً أو بعد غدا !

لست أدري إلى أى عاقبة تنتهى هذه الحرب . ولست أدري لمن سيتاح النصر ، وعلى من ستقدر الهزيمة . ولكن الذى لا أشك فيه هو أن الناس سيفضون أيام الحرب والأعوام التى تليها متأثرين بالفرائز أكثر مما يتأثرون بأى شىء آخر ، مهجرين لما عرفوا من قيم الأشياء إهداراً ، مزدربين لما ألفوا من المثل العليا . وما أرى إلا أنهم سيفقدون دهرأ متمردين على العقل والخلق ، واجدين في هذا التمرد أقصى اللذة وأقصى الألم .

لست أدري أنفهم غنى ! فقد ألفت الظروف بينك وبينى حجباً كثافاً صفاقاً ، لعل الكلام لا ينفذ منها ، ولعل العقول لا تتصل من دونها . أنت آمن وأنا خائف . أنت هادئ وأنا مضطرب . أنت

لا تخشى الموت وأنا أراه يسرع إلى وإلى ما حولي ومن حولي في غير ريث ولا أناة . كم أحب لك أن تعبر البحر لتقرب من ميدان الخطر أو لتسمع حديث الذين دنوا من هذا الميدان ، أو ألقوا به ثم ردوا عنه . فهما تكن المدينة التي سترسل إليها بعد أشهر فستكون فيها قريباً من المئات والآلاف من هؤلاء الجرحى الذين يوزعون توزيعاً على ما أقيم في فرنسا من المستشفيات ، وستسمع من هؤلاء أو من الذين يتصلون بهؤلاء أبناء الموت وأحاديث الحرب ، وستفهم أنها خليقة أن تغير في الحياة رأى الأحياء . أين أنا ؟ وماذا كنت أريد أن أقول لك حين بدأت هذا الكتاب ؟ . لقد أنسيت مكانى وأنسيت بدء الحديث . وهأنذا ألتفت عن يمين وشمال فأعرف المكان الذي أنا فيه والذي أكتب إليك منه . إنها هذه القهوة التي يألفها الأدباء في حي مونبرناس ، والتي تعودت أن أختلف إليها ، وأجلس غير بعيد من أنديتهم ومجالسهم ، لأراهم حين يقبلون وحين ينصرفون ، ولأسمعهم حين يديرون بينهم هذه الدعابة الحلوة ، وهذه الفكاهة ذات الأجنحة ، وحين يتناشدون الشعر ، ويتبادلون الرأي فيه حول أفداح الأبننت إذا دنا الظهر أو أقبل الليل ، وحول كؤوس الكونياك وأفداح القهوة بعد الغداء وبعد العشاء . إنى لأعرف نفسى في هذه القهوة التي كانت وفقاً أو كالوقوف على أدباء الحى اللاتينى . ولكنى أختلف إليها منذ أيام فلا أرى فيها خلق الأدباء ولا أنديتهم ، وإنما هي مزدحمة دائماً تكتظ بالمقبلين عليها من كل صوب ، قد

اختلطوا أشد الاختلاط ، وتباينت طبقاتهم أشد التباين . وهم يلمون بالقهوة لا يطيلون فيها المقام ، إنما يلتقون ويفترقون ، ويصيبون بعض ما يحتاجون إليه من شراب بارد أو خار ، ثم يمضى كل منهم لوجهه . ومن يدرى ! لعلهم لا يعودون إلى هذه القهوة أبداً . ومن يدرى ! لعل الذين يلتقون فيها لا يلتقون بعد هذا اليوم أبداً . وباريس كلها فى هذه الأيام تشبه هذه القهوة ، يلتقى فيها الناس سراعاً ويفترقون سراعاً . كلهم معجل ، وكلهم قلق ، وكلهم يستقبل الساعة التى هو مقبل عليها غير حاسب للساعة التى تليها حساباً ؛ لأن حساب الساعات لم يبق فى أيدي الناس وإنما صار إلى يد « أم قشعم » . ألسم تزعمون أن أم قشعم هى الحرب ؟ تعال أيها الصديق فانظر إليها وإبل سلطانها على النفوس ، فسترى وستسمع وستحس أشياء لا صلة بينها وبين ما تقرأ فى شعر زهير .

وداعاً أيها الصديق ! لقد ذكرت الآن فيم أقبلت إلى هذه القهوة . فهذه « إلين » تقبل على مبتسمة فى هذه الأيام التى لا يفهم فيها معنى الابتسام ، وأنا أبسم لها . ولا تسلى عن إلين ؛ فאלله قد نهاكم أن تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . وما أحب أن أسوءك بحديث إلين ، فيكفى أن تعلم أن صديقك الذى كان جاداً كل الجدة ، منصرفاً إلى الدرس كل الانصراف ، قد فارق اللذة وطلق الحب وقطع الأسباب كلها بينه وبين حميدة وفرند . يكفى أن تعلم أن صديقك هذا قد فارق الجدة وقطع الأسباب بينه وبين الدرس ، ووصل الأسباب

بينه وبين إلين . ولن أحدثك عنها ما دامت هذه الأسباب موصولة ،
فإذا انقطعت فسيطول بينك وبينى الحديث . فأنت تعلم أنى لا أحدثك
عن رضاي حين أَرْضَى ، وإنما أحدثك عن شقائى حين أشقى ،
فتمنّى لى الشقاء إن حرصت على أن أحدثك إليك .

وداعاً أيها الصديق ! إن إلين تضيق بانصرافى عنها إليك .
ولئن مضيت فى هذا الحديث لتمزقن كتابى إليك تمزيقاً . فلا تنصرف
عنك إليها ، ولأستقبل معها حياة المساء فى باريس المضطربة . فن
يدرى عم يسفر لنا الصباح !؟

١٦

ديسمبر فى . . .

وكذلك عبرت البحر فى أيام الحرب وفى فصل الشتاء ، ولقيت من
عبوره هذا الشر العنيف الذى خلقتة لنفسك خلقاً ، وخيّلته إليها تخيلاً
أيها الصديق . فما كانت سفينتك معرضة لخطر الغواصات : ولو عرفت
الجامعة أنكم تتعرضون لهذا الخطر ما أرسلتكم إلى فرنسا ؛ فهى حريصة
على حياتكم حرصاً شديداً . وما كانت سفينتك على صغرها وطول العهد
عليها معرضة للغرق ولا لأن تحطمها الأمواج : فلو كانت تعرض لشيء
من ذلك لما أذن لها بالعمل فى البحر . وإنما أنت رجل من أبناء الريف
لا تعرف المخاطرة ولا المغامرة ؛ فكل جديد عندك خطير ، وكل مشقة

عندك مشرفة بك على التهلكة . وها أنت ذا قد نجوت من الغرق ، فلم تنسفك غواصة ولم يطفح الموج على سفينتك . فانعم بهذه النجاة ، وانعم بالوصول إلى فرنسا والاستقرار فيها والاختلاف إلى جامعة مونبلييه ، وانعم بما قدر لك من أمن وهدوء ؛ فلن يبلغ الألمان مونبلييه . وأنسى لهم أن يبلغوها وهم قد ردوا عن باريس كما علمت ردّاً عنيفاً ، وهم قد اضطروا إلى هذه الحياة التي يحيرها في الخنادق ينتظرون أن ينحصر الشتاء ليستأنفوا الهجوم ، وينتظر عدوهم من الفرنسيين أن ينحسر الشتاء ليستأنفوا الدفاع العنيف وليخرجهم من أرض الوطن إخراجاً ! اهناً بهذا الأمن في مونبلييه وإن كنت لا أفهم لم وجهتكم الجامعة إليها وصرفتكم عن باريس . فليست باريس أقل أمناً من مونبلييه بعد أن ردّ الألمان عنها ردّاً وقد كسرت حدتهم وقلت عزائمهم ، فلن يبلغوها بعد اليوم مهما تنح لهم القوة ومهما يواتهم الحظ . ولكنكم قوم تحسنون الاحتياط وتغلون فيه وتتجنبون حتى مظنة الخطر . فلتنعموا بما أتيح لكم من هذا الحذر الذي لن يغني عنكم من الله شيئاً . ولكني أحب لك ألا تخلع نفسك بالأمانى ولا ترسلها مع الغرور ، ولا تخيل إليها أنك تعيش في فرنسا تلك التي عرفناها قبل الحرب ؛ فإن فرنسا تلك ليست في المدن ولا في الأقاليم ولا في باريس ، وإنما هي في ميدان القتال ، تواجه الموت وتبسم له بعد أن كانت من قبل تواجه الحياة وتبسم لها . ستسمع العلم ولكن من أساتذة شيوخ عجزوا عن حمل السلاح إلى الحرب فأقاموا في الجامعة يعلمون . وستختلف إلى

الدروس ولكن مع طلاب من الغرباء لا حظ لهم مما كان يملأ نفوس
الفرنسيين من فرح ومرح ونشاط . ستعيش في بيئة مظلمة مكفهرة ،
فيها أمل ولكنه بعيد ، وفيها خوف ولكنه قريب . فيها أمل في فوز فرنسا ،
وفيها خوف على أبناء فرنسا . وفيها يأس لاذع يتردد بين ذلك الأمل وهذا
الخوف . والحياة في هذه البيئة لا تخلو من لذة وعبرة ومتاع ، ولكنك
لا تستطيع أن تبلوها كما ينبغي ؛ لأنك لم تر فرنسا الفرحة المبهجة الآمنة
لتقيس إليها فرنسا المحزونة المكتئبة الخائفة . افرغ إذاً لعلمك ودرسك ،
وامنح أكثر وقتك للكتب ، وأجل معرفة فرنسا إلى حين ؛ فإنك لن
تعرفها حق المعرفة إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها . ومتى تضع
الحرب أوزارها ؟ ..

ما كنت أظن أن حب الاستطلاع يسيطر عليك إلى هذا الحد
فقد ذهبت فيما زعمت لي إلى فندق جنيف حين انتهيت إلى مرسيليا ،
وكنت تظن أنك ستلقى فيه فرنند . ويحك ! وهل تبقى فرنند في فندق
واحد كل هذا الإمد البعيد ؛ من يدري ! أين فرنند بعدما مضى من
الزمن ، وبعدها اضطربت شؤون فرنسا وشؤون الأرض كلها هذا
الاضطراب ؛ وماذا كنت تريد إلى فرنند ؟ وعم كنت تريد أن تسألها ؟
لقد أنبأتك بما وسعني أن أنبئك به من أنبائها ، فهل كنت تريد أن
تمتحن ذوقى ؟ أو هل كنت تريد أن تعرض نفسك لمثل ما عرضت نفسى
له من المحنة ؟ إنك لست في حاجة إلى فرنند إن كنت تريد أن تبلو
مثل ما بلوت ؛ فأمثال فرنند كثيرات في كل فندق وفي كل مدينة وفي

كل بيثة . فاحذر أن تتعرض لمكرهن ، وارفع نفسك عن هذا الشر الذى غمست نفسك فيه ، والذى لا أستطيع أن أخلص منه مهما أبدل من جهد وأتكلف من عناء .

لقد صدق « موسى » حين شبه قلب الرجل النقي بالإناء العميق ، إذا استقر الدنس فى قاعه فليس إلى تطهيره من سبيل ، ولو مر به ماء البحر كله . إن قلبى هو هذا الإناء ، وقد استقر فى قاعه هذا الدنس . ولقد حاولت تطهيره ما استطعت إلى ذلك سبيلا : بالتفكير والتدبر ، بالقراءة والدرس ، بالجد والنشاط ، بهذه المثل العليا التى كنت اتخذتها وأجدت فى السعى إليها ، وأوفق أحياناً فى هذا السعى بما حاولت من إرضاء الأساتذة ، وبما حاولت من إرضاء مراقب البعثة ، وبما حاولت من إرضاء الجامعة ، وبما بلغت من هذا كله ، ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أحو من قرارة نفسى هذا الدنس الذى استمر فيها فلزمها لزوماً ، واتصل بها اتصالاً لا انقطاع له .

لقد خيل إلى فى بعض الأوقات أنى قد خلصت من الشر وبرئت من الإثم ، وارتفعت عن النقيصة ، وأنى قد كفرت بالمرض الطويل الثقيل المهلك عما اقترفت من السيئات ، وأنى قد طهرت نفسى بالعلم تطهيراً ، وكرمتها بالدرس عن كل ما يفسدها ويشينها ، وأخذت أكبر نفسى وأعلى بها ، ولكنى تبينت بعد ذلك أن الحياة غرور كلها ، وأن القضاء نافذ بالغ أجله مهما نفعل ومهما نحاول . وقد عرفت قضاء الله فى أمرى . فأنا رجل موكل بالجد واللهم معاً ، أبلو اللذة حتى أصل

إلى أقصاها ، وأبلو الأ لم حتى أنتهى إلى غايته ، أقبل على العلم حتى كأتى لم أخلق إلا للعلم ، ثم أقبل على اللهو حتى كأتى لم أخلق إلا للهو . أقبل على العلم فلا يصرفنى عنه صارف مهما يكن ، وأقبل على اللهو فلا يشغلنى عنه شاغل مهما يكن . يتاح لى الغنى ويلم بى الفقر ، فلا يمنعنى هذا ولا ذاك من المضى فى العلم إن كنت مقبلاً عليه ، ولا من المضى فى اللهو إن كنت منصرفاً إليه . وقد عرفت إلين - إن كنت تذكر إلين - من أمرى هذا كله ، فقبلته منى وجارتنى فيه ، وأخذت إن رأتنى مقبلاً على العلم تهملنى حتى كأنها لم تعرفنى قط ، وإن رأتنى مقبلاً على اللهو تعنى بى حتى كأنها لم تعرف غيرى قط . وأنا ياسيدى كما ترى لعبة تتقاذفها معاهد العلم ومنازل اللهو . وقد بقى لى شىء من إرادة ، فأنا أنفقه فى تنظيم أمرى على وجه ما ، وأود لو استطعت أن ألأم بين هذين العدوين اللذين يختصمان فى اختصاصاً ، وأود لو استطعت أن أقسم وقى وجهدى بينهما قسمة عادلة ، فللعلم شطر منهما واللهو شطر آخر . فمن يدرى ! لعلى إن وفقت لهذه القسمة أن أصلح مزاجى بعض الإصلاح ، وأن أنظم أمرى بعض التنظيم ، وأن أنتهى إلى نتيجة أرضاها وأرضى بها من لا بد أن أرضيهم من الناس . وقد أخذت فى هذه التجربة منذ أسابيع ، وأنا أبذل فيها جهداً عنيفاً وألقى فيها شططاً شديداً ، وأخشى كل الخشية ألا أوفق لشىء . لقد أخذت أدرس اللاتينية ، ورتبت نظام الدرس مع الأستاذ ترتيباً رضيهِ وأقرهِ ، فلما أخذنا فى تنفيذ ما اتفقنا عليه لم نجد إلى ذلك سبيلاً . ولو أنك سألته

عنى لأنبأك فى بأس وحزن بأنى أكسل الناس وأنشط الناس ، وبأنى أقدر الناس على العمل وأعظمهم حظاً من التوفيق ، وبأنى أعجز الناس عن الجحد وأعظمهم نصيباً من الحيلة . أما فى أول أمرنا فقد كان لا يزورنى إلا وجدنى مستعداً للقائه مهيئاً لدرسه . وكان يزعم لى أنى سأقدم للامتحان فى وقت قريب وسأفوز فيه فوزاً مبيناً . ثم تمضى أسابيع ، وإذا أنا قد صرفت عن العلم ودفعت إلى اللذة ، وأفلتت من السوربون ولزمت ذراعى إلين . ويزورنى الأستاذ للدرس مع الظهر فيجدنى مغرقاً فى النوم لأنى أفنيت الليل ووجه النهار فى اللهو والعبث والمحجون ؟ فيستئش إذ تكررت زيارته فى غير جدوى .

ولكنى أفرغ له بعد حين ، فأسعى إليه وألح عليه ، وأعوض ما فات وأصلح ما فسد ، وأرضيه بعد سخط . وعلى هذا النحو تمضى حياتى منذ حين ، ولم يزدها شوب الحرب إلا مضياً فى هذا النحو من الفساد والاضطراب . فقد محت الحرب من نفسى كل ثقة ، وزادت عنها كل يقين ، وأهدرت فيها كل قيمة للعمل والأمل والحياة . فأنا أحيا لغير شىء ، أو قل لى لا أحيا ، وإنما أنتظر شيئاً مجهولاً لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه ، ولو قد أردت لما استطعت . وأنا أنتظر هذا الشىء المجهول كما أستطيع أن أنتظره ، مستعيناً عليه بالعلم والجحد حين أفرغ للعلم والجحد ، وباللهو والعبث حين أنقطع للهو والعبث . وقد يتاح لى أن أفكر فى ذلك ، وأن أمتحنه وأحاول أن أعرف أسبابه ، فأشعر بأن نشأتى فى مصر هى التى دفعتنى إلى هذا كله دفعاً وفرضت

هذا كله على فرضاً ؛ لأننى لم أنشأ نشأة منظمة ، ولم تسيطر على تربيتى وتعليمى أصول مستقيمة مقررة ، وإنما كانت حياتى مضطربة كلها أشد الاضطراب ، تدفعنى إلى يمين وتدفعنى إلى شمال ، وتقف بى أحياناً بين ذلك . ولو أنى بقيت فى مصر لأنفقت حياتى كلها كما بدأتها فى هذا الاضطراب المتصل فى غير نظام وإلى غير غاية . ولكنى عبرت البحر إلى بيئة لا يصلح فيها الاضطراب ، ولا تقوى على الحياة فيها نفوسنا الضعيفة المضطربة ، فلم أحسن لقاءها ولم أحسن احتمال الانتقال فيها ، ولم أحسن الخضوع لما تفرضه من نظام واطراد . ثم كانت الحرب واضطربت الدنيا ، وأضيف فى نفسى فساد إلى فساد واضطراب إلى اضطراب ، ففقدت نفسى محورها — إن صح هذا التعبير — وأصبحت لعبة تتقاذفها الأهواء .

ما أشد حاجتى إلى قربك أيها الصديق ؛ فقد تقدر على أن تنفعنى ، ولكنى لا أستطيع أن أفرّ إليك من باريس ، فالموت أهون على من ترك باريس ، ولا أستطيع أن أنقلك إلى حيث أنا ، فالجامعة تحول بينك وبين هذا الانتقال . وإنى مع ذلك لأخشى على نفسى كل شيء ، وإنى مع ذلك لأظن أنى لن أعود إلى مصر — إن عدت إليها — سالماً موفور العقل مستقيم الملكات قادراً على النفع والإنتاج . فلينفذ القضاء إذاً ، ولتَم كلمته . فلئن ذهب فى غير نفع فما أكثر الشبان الذين يذهبون فى غير نفع هذه الأيام !

ينابير في . . .

إن ظننت أيها الصديق أن في بقية من عقل أو فضلاً من إرادة ،
فانف عن نفسك هذا الظن نفياً . فالبرهان يقوم لي كل يوم على أني
أسعى إلى الجنون في سرعة تزداد بين حين وحين ، كما تزداد سرعة
السقوط بالجسم الذي يهوى إلى الأرض بين ثانية وثانية . فإن كنت
في شك من ذلك فاعلم أني أنفقت في القراءة وفي القراءة وحدها إجازة
عيد الميلاد ورأس السنة على حين كان الناس ينصرفون إلى ما ينصرفون
إليه في هذه الأيام التي هي أيام بهجة وعيد عادة ، والتي يشوبها الحزن
والألم هذه المرة . كنت أنا عاكفاً على « سيسرون » و « تاسيت »
قراءة وفهماً وترجمة . وكنت أجد لذة في هذه الليالي التي أنفقها من
وراء الباب مع الكتاب القدماء والشعراء القدماء ، على حين يحيا الناس
حياتهم ويجدون فيها ما يجدون من اللذات والآلام . وقد أنسيت كل
شيء وأنسيت كل إنسان . ولولا أن الخادم كانت تحمل إليّ الطعام
أو تدعوني إليه لأنسيته أيضاً . وقد انقطعت الصلة بيني وبين إلين في
هذه الأيام التي كان يجب أن تقوى فيها الصلة وتكون بمأمن من الضعف
والفتور .

ثم انقضت الإجازة ، وجعلت أختلف إلى السربون ، فسمعت درس

اللاتينية وظفرت ببناء الأستاذ ، وخرجت . ولكنى لم أذهب إلى بيتى ، وإنما ذهبت إلى حيث ألقى إلين . وقد لقيتها ، وأنفقت معها اليوم بعيداً عن باريس فى غابة من هذه الغابات الجميلة القريبة ، ثم عدنا ولم نفرق إلا لنتقى بعد قليل . وأنا أختلس هذه الدقائق لأكتب إليك ، ولأظهرك من أمرى على أطوار هذا المرض الذى يسعى إلىّ ، أو يسعى فىّ سعياً حثيثاً . وثق بأن السربون لن تترانى غداً ولا بعد غد ، بل ثق بأنى لا أعلم متى تترانى السربون .

وداعاً يا سيدى . إنى لأرى شيخ الجنون بغيضاً مزعجاً ، ولكنى مع ذلك لا أهابه ولا أتأخر عنه ، وإنما أقدم عليه لإقدام الحب الجرىء . وكيف أحجم عن الجنون وقد اتخذ لنفسه صورة إلين !

١٨

يوليو فى . . .

لم يكن الامتحان عسيراً ، ومع ذلك فقد أخفقت فيه أجل إخفاق وأروعه ، هذا الإخفاق الذى لا يظفر الطالب فيه بدرجة أو بعض درجة ، وإنما يظفر فيه بالصفير المريع . ولن تعلم الجامعة من أمر هذا الامتحان شيئاً ؛ فقد تقلعت إليه سرّاً ، فلن أؤدى لها حساباً عن مال لم تنفقه وأمر لم تحط به علماً . لم أكن أشك فى الفوز ؛ فقد وعدنى به أستاذى الخاص الذى أتعلم عليه اللاتينية ، ووعدت نفسى به وتهيات له كأحسن

ما يتبها طالب للامتحان . ولكن-أدركنى نوبة المرض أو نوبة اللهو
— إن أردت الدقة فى التعبير — قبل موعد الامتحان بأسبوعين ، فقضيت
هذين الأسبوعين مع إلين ، نهم فى الغابات إذا كان النهار ، ونطوف
على الحانات إذا كان الليل ، ولا نلم بالبيت إلا مطلع الفجر .
كانت إلين تذكرنى بموعد الامتحان ، وتحذرنى عاقبة هذا الجنون ،
وتصور لى جمال الفوز ، وتمنى تلك الأيام الجميلة التى سننفقها بعيداً
عن باريس إذا كان الصيف . ولكنى كنت أعرض عنها أشد الإعراض ،
وأزجرها أشد الزجر . فقد كان شيطان اللهو قد ملأ قلبى ونفسى
وركب كنفى .

ثم أصبح يوم الامتحان فلا أتردد فى الذهاب إلى السوربون ولا فى
دخول حجرة الامتحان ، وأخذ النص اللاتينى فأقرؤه وأقرؤه ، ثم
أقرؤه وأقرؤه ، فلا أفهم شيئاً ولا أصنع شيئاً . وأنا أبذل جهداً عقلياً
عنيفاً لعلى أوفق لفهم جملة أو بعض جملة ، فإذا لم أظفر بشيء رددت
النص كما أخذته ، وانصرفت إلى بيتى راضياً محزوناً معاً . ثم لا أكاد
أخلو إلى هذا النص بعد ذلك بساعة أو ساعتين حتى أفهمه فى غير
مشقة وأترجمه فى غير جهد ، وأستوثق من أنى كنت خليقاً أن أفوز ،
وإذا قلبى يمتلىء سروراً وبهجة ، وإذا أنا أسرع إلى إلين فأنبئها بأنى
جمعت بين الفوز والإخفاق معاً .

وداعاً يا سيدى ! سأنجح فى نوفمبر إذا لم يدركنى الشيطان . فأما
الآن فإلى اللهو ، إلى اللهو المحنون الذى لا يعرف رفقاً ولا مهلاً ولا تفكيراً .

إلى اللهو حتى يضعف العقل والجسم معاً ، وحتى أضطر إلى الراحة ثم
إلى الجحد اضطراراً .

١٩

سبتمبر . . .

وإذاً فقد زرت فرنسا وأقيمت فيها ، وستعود إلى مصر ولم يكن بينك
وبينى هذا اللقاء الذى كنا نرجوه . ولست أدري أيسوءك هذا أم
لا يسوءك ، ولكنى أعلم أنه يسوءنى حقاً ؛ فقد كنت حريصاً على لقائك
لأراك بعد أن طال افتراقنا ، وقد كنت حريصاً على لقائك لأستعين
بك على نفسى وعلى ما يدهمها من الأحداث والخطوب . ولكن الجامعة
أبت أن نلتقى ، وأبت الظروف أن تطول إقامتك فى هذا البلد حتى تتاح
لنا فرصة اللقاء . ولبنى لأرجو أن تتاح لك عودة قريبة ، فإ أرى أنك
قد زرت فرنسا ولا انتفعت بزيارتها ، وما أظن إلا أنك ستعود وفى نفسك
حسرات لا تنقضى . فليس من الهين أن تدنو من الغاية ثم ترد عنها
رداً ، وأن تشارف الأمل ثم تقطع بينك وبينه الأسباب . ولست فى
حاجة إلى أن أنبئك بأى قد رفضت الإذعان لأمر الجامعة ، وأبيت
أن أعود فى هذه المرة كما أبيت ذلك فى العام الماضى . وكيف تريدنى
على أن أعد وقد أنفقت أعواماً فى فرنسا ، ثم لم أصنع شيئاً تحسن
العودة والاطمئنان إليه ، وإنما كان حظى من الفساد والشر أكثر من

حظى من الصلاح والخير ! وماذا تريد أن أقول حين أعود إلى مصر
فأسأل عما صنعت ؟ أحدث الناس عن فرنند وإلين وما لقيت عندهما
مما أحب وما لا أحب ؟ أم أحدث الناس بذلك المرض الذى ألح على
جسمى حتى أشرف بى على الموت ؟ أم أحدثهم بهذا المرض الذى ألح
على عقلى حتى أشرف بى على الجنون ؟

لا ياسيدى ! إن العودة إلى مصر شيء لم يقدر لى بعد . ولو أنى
بلغت من مقامى فى فرنسا كل ما أريد ما رضيت هذه العودة ولا أجبث
إليها . فأنت تعلم أنى قد نذرت ألا أترك باريس حتى أصير إلى ما
تصير إليه ، وحتى أرى مخرجها من هذه الحرب كيف يكون . وما
أبعد الأمد بيننا وبين آخر الحرب كما ترى ! فالأسباب مقطوعة بينى
وبين مصر حتى تنكشف هذه الغمة . وهب كل شيء يجرى كما أحب ،
فكيف أعود إلى مصر دون أن أصطحب إلين وليس لى إلى الحياة
سبيل . إذا لم أكن قريباً من إلين ، أراها متى شئت وترانى متى أحبث ،
وأفزع إليها حين أضيق بحياة العمل والجد ، وإلين فرنسية لا تريد أن
تهجر وطنها ، ولا أن تفارق باريس ، وإن أعطيت ملء الأرض ذهباً .
فإقامتى فى فرنسا قضاء محتوم لامندوحة لى عنه . وشهد الله بما أجهد لذلك
ألماً ، وإنما أجهد فيه اللذة كل اللذة . فاقراً تحيى على مصر إن شئت ،
ولا تحدث أصحابنا بشيء من أمرى . وإن سألك أهلى عن بعض أمرى
فقل لهم ما يخطر لك ، ولكن احذر أن تنبهم من حقيقة أمرى بشيء ؛
فما ينبغي أن نشق على هذين الشيخين ، وما ينبغي أن نشمت بنا الشامتين

وبعد فإن أمور مصر محزنة حقًا . أليس مما يسوء ويحزن أن يعجز هذا البلد السعيد الناعم بالسلم ومنافعها عن أن يمد الجامعة من المال بما يمكنها من استبقاء بعوثها في أوروبا حتى تتم ما أرسلت من أجله ؟
أو ليس مما يحزن ويسوء أن نرى هذه الجهود الضخمة الشاقة التي تبذلها الشعوب الصغيرة لتثبت للحرب وتحتمل أثقالها ونفقاتها ، وتضحي فيها بما تضحي به من الأنفس والأموال ، وأن نرى مصر عاجزة أو بخيلة لا تستطيع أو لا تريد أن تنفق على عشرة من أبنائها يدرسون العلم فيما وراء البحر ؟ ولكن ماذا ينفع الحزن والأسى ، وماذا يجدى اللوم والتقرع ؟ لا بد مما ليس منه بد . عد إلى مصر فأنت مضطر إلى أن تعود . ولأبق أنا في فرنسا . فأنا مكره على أن أبقى . وسرى أبتاح لنا أن نلتقي ، وأين يتاح لنا أن نلتقي !
وداعاً أيها الصديق وإن لم يكن بيننا لقاء .

٢٠

وأعود إلى باريس بعد ثلاثة أشهر قضيتها في القاهرة فأرى صاحبي ، ولكني لا أكاد أعرفه لولا صوته الذي لم يتغير ولولا ضحكاته العراض التي لم تهذبها الإقامة في باريس ؛ فأما غير ذلك من أطوار نفسه فقد تغير حتى أنكرته أشد الإنكار . فصاحبي محزون مغرق في الحزن ، حتى ليفسد عليك رأيك في الحياة إن لقيته في هذا الطور . وصاحبي مسرور

مغرق في السرور ، حتى ليثير في نفسك الإشفاق عليه من هذا الإغراق في السرور إن لقيته في هذا الطور أيضاً . وصاحبي ينتقل من الحزن إلى السرور ومن السرور إلى الحزن فجأة في غير تهيؤ ولا تدرج - ولا انتظار لهذا الانتقال . وإنما أنت مع رجل بائس يائس ، سيء الرأي في الحياة والأحياء ، قد أظلم كل شيء في وجهه وفي نفسه ، فلست تسمع منه إلا شراً ونكراً . وإذا أنت ترى هذا الرجل وقد وثب فجأة من نقيض إلى نقيض وأصبح فرحاً مرحاً ، منطلق اللسان بالشناء على كل أحد وعلى كل شيء ، ممتلئ الفم بهذا الضحك المزعج العريض ، لا يتكلم هادئاً ولا يتحرك هادئاً ، وإنما هو عنيف في لفظه ، عنيف في حركته ، عنيف في كل شيء . حتى إنه ليلفت إليه وإليك الناس ، وحتى إنه ليخيفك من أن ينكروا مكانكما ويدعوكما إلى الصمت وإلى إثارة الهدوء .

وصاحبي إن حزن لا يعدل بالكتاب شيئاً ، وصاحبي إن سر لا يعدل بالشراب شيئاً . وهو مسرف في صحبة الكتاب يأخذ المجلد الضخم فلا يكاد ينصرف عنه حتى يزدرده ازدراداً . وصاحبي مسرف في الشراب إذا أقبل الليل عليه لم تكفه الزجاجة ولا الزجاجتان من معتق التبيذ ، وإنما يشرب حتى يعجز عن الشرب . وهو لا يعجز عن الشرب إلا حين تعجز يده عن تناول الزجاجة وصب شيء من روحها في القدح . وإذا انتهى العجز بصاحبي إلى هذا الحد لبث مكانه لا يريم ، نائماً كالمستيقظ ، ومستيقظاً كالنائم حتى تنجلي عنه الغمرة بعد ساعات . وصاحبي يختلف

إلى السوربون قليلا ولا يكاد يختلف إلى القهوة ، ولكنه يلزم بيته في أكبر الوقت . وقد يستخفى اليوم أو الأيام لا نعلم أين هو ، ثم نلقاه فنسأله فينبئنا بأنه كان مع إلين . ولم يتح لأحد أصحابه ولم يتح لى بالطبع أن نرى إلين هذه أو نسمع منها أو نتحدث إليها ، حتى لقد كان يخيل إلينا أنها شخص من أشخاص الأساطير قد خلقه صاحبنا لنفسه خلقاً في وقت من أوقات سكره وطوه . ولكنه كان يحدثنا عنها فيطيل الحديث ، وكانت أحاديثه لا تصور شخصاً مختعراً ؛ وإنما تصور شخصاً حياً يذهب ويجيء ، ويعبث ويلهو ويعين على العبث واللهو ، ويدفع إليهما أحياناً . وكثيراً ما ألحنا على صاحبنا في أن يعرفنا إلى إلين أو يعرفها إلينا ، فلم نكن نلقى منه إلا إباء وإعراضاً . وكان يقول : إن حب الاستطلاع لثم ، فما تريدون إلى إلين ؟ إنى أحدثكم من أمرها بما يعنيكم وما لا يعنيكم ، وإلين صاحبتى أنا لا صاحبتكم أنتم ، ولن يكون لكم منها إلا هذا الذى تسمعون عنها ، وإنه لكثير أكثر مما ينبغي . وكثيراً ما جد بعض أصحابنا في تتبعه والبحث عن إلين فلم يظفر بطائل . ولولا أنى رأيت إلين بعد ذلك لما شككت فى أنها كانت شخصاً من أشخاص الخيال .

وقد أنفقنا عاماً دراسياً كاملاً على هذا النحو ، ألقى صاحبي بين حين وحين فأنكر من أمره أكثر مما أعرف ، ولا تتصل بينه وبينى تلك الأحاديث التى كانت تتصل بيننا فى القاهرة التى كانت لا تنقضى ، وإنما تلتوى وتعوج ، وتخرج بنا من موضوع إلى موضوع ومن رأى إلى رأى ،

حتى أضرع إليه في أن يقفها لأنه أعيانى وأجهدنى حقاً .
لم تكن تتصل بيننا هذه الأحاديث في باريس ، إنما كان يلم
بحديث عن السوربون قليلا ويطيل الحديث . عن إلين ، مثنياً عليها حيناً ،
شاكياً منها حيناً آخر ، واصفاً محاسن جسمها ومحاسن نفسها دائماً .
ثم يفرق الصيف بيننا ، فأذهب أنا إلى الجبل ، ويقيم هو في
باريس لا يكاد يفارقها إلا إلى ضاحية من الضواحي أو غابة من الغابات
ينفق فيها النهار أو بعض النهار مع إلين .

ثم أعود إلى باريس آخر الصيف وقد قدمت إليه النبأ بعودتى فإذا
بلغتها لم ألقه ، فإذا انتظرت لم يسع إلى ، ولكن صاحبة الباب تصعد إلى
ذات صباح وتدفع إلى قطعة من الورق ما أشك في أنها قد اقتطعت من
علبة من علب السجائر وقد كتب عليها بخط مضطرب هذه الكلمات :
« صديقك مريض ينتظر عيادتك » .

فأسرع إليه فأراه . ويأشر ما أراه ! أرى صاحبي مريضاً لا تظهر
عليه آثار المرض ، ولكنه مؤمن كل الإيمان بأنه مريض ، لا يشكو
شيئاً ، ولكنه واثق كل الثقة بأنه مريض . قد عرض على الأطباء فلم
ينكروا من صحته شيئاً ، ولكنه مقتنع كل الاقتناع بأنه مريض وبأن
الأطباء مخطئون . ولا أكاد أتحدث إليه وأتبسط معه في الحديث حتى
أستيقن أنا أيضاً أنه مريض وأن مرضه أخطر جداً مما يظن ومما كنت
أقدر ؛ فقد انتهى إلى الجنون الذى كان يحشاه أو إلى شيء قريب جداً
من هذا الجنون .

كان يتحدث إلى في أمر السوربون أو في أمر إلين فيستقيم الحديث استقامة حسنة ، ولكنه لا يكاد يسمع في الجو أزيز الطيارة - وما كان أكثر ما يسمع أزيز الطيارات في باريس - حتى ينهض بل يشب ويهم بالخروج . فإذا سأله ما خطبه ؟ أجاب : ألسنت تسمع أزيز هذه الطيارة فإنه دعاء لي إلى الخروج .

وكان قد استقر في نفسه أن الصحف الفرنسية كلها مجمعة على مقتته وبغضه والكيد له . وكان يشتري منها أكثر ما يستطيع شراءه ، ويتفق في قراءتها أكثر وقته ليتبين هذا الكيد الذي تكيده له ، وهذا المكر الخبيث الذي تمكره به . ولم يكن يلقي في ذلك كبير جهد ؛ فقد كان هو ألمانياً ، وكان كل ما تذكره الصحف عن ألمانيا موجهاً إليه ومنصباً عليه انصباباً . وكان يؤذيه من أمر هذه الصحف أنها لا تعرف له حبه لفرنسا ووفاءه لباريس وإقامته فيها حين تفرق عنها الناس . ما أشد جحود الفرنسيين للجميل وكفرهم لصداقة الصديق !

ثم يعظم الأمر قليلاً قليلاً ، وإذا الحلفاء جميعاً يذكرون به ويكيدون له ويدبرون له سوء . ولم لا ؟ أليس الحلفاء يحاربون ألمانيا وهو ألمانيا ! وأصبح ذات يوم مرتاعاً حقاً ؛ فقد جاءه النبأ - ولست أدري كيف جاءه ولا من أين جاءه - بأن الحلفاء يأترون به لينفوه إلى المغرب الأقصى . وهو يتبني بأنه قد جد في السعي لصرف الحلفاء عن هذا الإثم العظيم والظلم القبيح ، فكتب إلى جماعة من أساتذته في السوربون وإلى جماعة من كبار الساسة في مجلس النواب والشيوخ يقص عليهم القصة

ويستعينهم على اتقاء هذه الكارثة . وهو ينتظر ردهم عليه ؛ ولكنه ضيق
بباريس هذه الخائنة الماكرة التي لا تعرف جيلاً ، ولا ترعى حقاً ،
ولا تحفظ ود الصديق ، والتي هي في حقيقة الأمر صورة صادقة لهذه
الفتاة الخائنة التي كانت تسمى إلين والتي قد جمحت حقه ونسيت مودته
وأعرضت عن حبه إعراضاً ، وأخذت تكيد له مع الكائدين وتمكر مع
الماكرين . وهو يلح على أن يفارق باريس وينتظر الرد على كتبه في
مدينة أخرى أقل خيانة وغدراً من هذه المدينة الخائنة الغادرة التي يسكنها
الخونة الغادرون . والطبيب الذي يعوده لا يرى بأساً بأن يفارق باريس
ويقیم في مكان معتدل الهواء كثير الشجر . وما هي إلا أن يستقر صاحبي
في أحد الفنادق غير بعيد من باريس في طرف غابة من الغابات .
ومن هذا الفندق تصدر رسائله التي لا تنقضي إلى أساتذة السوربون وإلى
رجال وزارة الخارجية وإلى أنا . ويالها من كتب تلك التي كانت تنهى
إلى في الصباح والمساء من كل يوم ! حسبي أن أثبت منها هذا الكتاب القصير :
نوفبر في . . .

لم يبق لي أمل ولا شيء يشبه الأمل أيها الصديق ؛ فقد أجمع الحلفاء
أمرهم وأمضوا عزيمتهم لا يقبلون في ذلك مراجعة ولا شفاعة ، بل هم قطعوا
على الشفاعة كل طريق ، فأفسدوا على حتى أساتذة السوربون الذين
كانوا يحبونني ويؤثرونني أشد الإيثار . فهؤلاء الأساتذة يتلقون رسائلي
فلا يردون عليها ؛ وأكبر الظن أنهم قد عرفوا خطي فهم لا يقرعون كتبي
إذا انتهت إليهم . والغريب أن أحدهم فلاناً . . . كان قد امتلأ قلبه حباً

لي وإعجاباً بي حتى قبل ما عرضت عليه حين خطبت إليه ابنته . وهذه الخطبة هي التي غاظت إلين فصرقتها عني ولست أدري من أبلغها أمر هذه الخطبة التي كانت سرّاً ، إلا أن يكون هذا الصديق الماكر الذي تعرفه ، فقد شربت معه ذات ليلة وتبسّطت في الحديث . فلما أصبحت انتهت إلى رسالة القطيعة من إلين .

وإلين من غير شك هي التي أفسدت على قلوب الحلفاء وصورتي لهم في صورة العدو الخيف ، وهي التي زينت لهم نفيي إلى المغرب الأقصى . يا لغيرة النساء ! ويا الكيد النساء ! ويا لضعف الرجال ! ويا لسبذاجة الرجال ! وإن كانوا أساتذة في السوربون أو ساسة محنكين . لم يبق لي أمل في عفو الحلفاء . عفوهم عن ماذا ؟ وهل جنيت عليهم ذنباً أو اقترفت في ذاتهم إثماً ؟ لقد كنت أدافع عنهم في كل فرصة وأدود عن حقوقهم بالقلم واللسان ، ولكنهم قد أجمعوا أمرهم على نفيي ، وأنت وحلك القادر على حمايتي ووقايتي من هذا النفي . وماذا تريد أن أضنع في المغرب الأقصى ؛ أليست مصر أولى بي ؟ ! أو لست أنا أولى بمصر ؟ ! إن في مصر حميدة وإن في فرنسا إلين ، وجوار حميدة على بغضها لي أهون على من جوار إلين ؛ فإن حميدة لم تؤلب على ، ولم تكذب لي ، وإنما تلقت إساعقي إليها بالصبر والعفو . أما إلين فقد تلقت إحساني إليها بالحدود والعقوق . فلا مقام لي في هذا البلد ، ولا سبيل إلى الرحيل إلا أن تعينني عليه وأن تحكم تدبيره لإحكاماً . فعيون الحلفاء يقظة لا تنام ، وجواسيسهم منبثة في المحطات والثغور . ولست أدري كيف تريد أن

تدبر الأمر . ولكنى معتمد عليك فى إخراجى من هذه الأرض . وأنا مستعد للتكر فما شئت من الأشكال والأزياء حتى أبلغ مصر . فإذا وضعت الحرب أوزارها وتبين للحلفاء أنهم قد ظلمونى حين أساءوا الظن بى وسمعوا فى وشاية الوشاة ، فمن يدرى ! لعلى أعود إلى فرنسا فأتم درسى فى السوربون وأقترن إلى هذه الفتاة التى أحبها حباً لا حد له ، والتى قد رضىنى أبوها لها زوجاً ، والتى كدت أسعد بزواجها لولا إلين ولولا وشاية هذا الصديق الخائن . صدقنى إن من ضعف الرأى وفساد العقل أن تطمئن إلى هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أصدقاء .

٢١

وتحمل إلى صاحبة الباب ذات مساء حقيبة ضخمة ومعها هذا الكتاب
سيدى :

أنت تعرفنى من غير شك ، فكثيراً ما حدثك عنى صديقك . . . وكثيراً ما حدثنى عنك ، وقد صورك لى دائماً على أنك أحب أصدقائه إليه ، وأوفاهم له ، وأحفظهم لسره . فأنا أحمل إليك هذه الحقيبة بعد أن احتفظت بها عاماً كاملاً ، لا لأنى كنت أنتظر أن يعود صاحبها إلى ، فقد أياسنى الأطباء من شفائه ، بل لأنى كنت أجد الجهد كل الجهد فى فراقها ، وفى فراق ما يتصل به من الكتب والمتاع . ولكن هذه الأعوام التى نحياها قد علمتنا الإذعان للقضاء والخضوع لما ليس منه بد . فإليك

هذه الحقيبة يا سيدى ؛ فإن لصاحبها من أبناء وطنه أهلاً وأصدقاء هم
أحق منى بما فيها وأجدر أن يفهموه ويقدروه .

وفى بيتى غرفة مغلقة منذ عام فيها كتب كثيرة جداً ومتاع ليس بذى
بال ، فهذه الغرفة طوع أمرك متى شئت أقبلت فأخذت ما فيها ووجهته
حيث أحببت .

ولك يا سيدى تحية ملؤها الحزن الذى ما أظن أنه سينتضى أو تهدأ
لوعته قبل زمن طويل .

* * *

وقد حفظت هذه الحقيبة بضعة عشر عاماً لا أعرف من أمرها إلا
أنها مملوءة بالأوراق . فلما أتاح الظالمون لى شيئاً من فراغ ، نظرت فى
هذه الأوراق فإذا أدب رائع حزين صريح ، لا عهد للغتنا بمثله فيما
يكتب أدباؤها المحدثون . وقد هممت بنشره وقدمت بين يديه هذا الكتاب .
ولكن هل تسمح ظروف الحياة الأدبية المصرية بإذاعة هذه الآثار
يوماً ما .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٧٩٣٧

I.S.B.N 977- 01 - 5708 - 2



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال
إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا
نتشبع بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة في كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة
الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب
في متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية
وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى في كل العالم الثالث
ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ في
وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر
التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



مائة وخمسون قرشاً

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع
١٩٩٨